

# قصة حياة

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

---

دار الشعب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

# قصة حياة

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

---

دار الشعب

## قصة حياة

هذه ليست قصة حياتي ، وإن كان فيها كثير  
من حوادثها : والأولى أن تعد قصة حياة  
إبراهيم عبد القادر المازني.

## مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حدثاتي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أنتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفي إلى أمي أسأله عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لذاتي فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترضي لي ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت متزن : « اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أي نعم . فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يبق لنا شيء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعري ؟ » :

فلم ترحمني . وقالت : « قد نجوع ونعري ! من يدري ؟ ولكن أمل في الله كبير . وعندي حل ومتاع لا حاجة بي إليه . فسأبيع من هبنا ونقنات ونكتسي . وستواصل التعلم — ما من هذا بد — حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العسر يسر . فإيئست من رحمة الله . ولكنني لا أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيج فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغري بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسرى أنك لن تخسر شيئاً » .

فمرت أركض لأن هذا واجبي ، وما تطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي . على حين كان يركض غيري، للهو والتسلية .

فعرفت في التاسعة من عمري - وهي سن خضة جداً - أن هناك واجبات تؤدي لذاتها ، وحتوناً تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة : وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وإني فقير وأن كنت مستور الحال . ولكن الستر لا ينني الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه . فأرهدف ذلك إحساسي ، حتى صار ينحني بمنال حد المبراة على قلبي فيحزّه ويقطعه . فترعت شيئاً فشيئاً إلى الإنقباض عن الناس ، واتقاء الخرض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعي نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوى هذا الميل في نفسي وعمقه أني بعد الذي سمعته ووعيته من أمي . قصدت إلى أخي الأكبر - وهو من غير أمي - وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب ؟ قتال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذي أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أتلّف . فأحسست أني شبيت جداً عن الطفولة في تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل « أليس لكل امرئ حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجني على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك » ..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شذراً . وإذا كان الأخ يجني على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب الذي لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ » .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن في وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء

نفقات التعايم ولكن « الواسطة » يطمع في جزاء أو « رشوة » فأبت أمي . كل الإساءة . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يطالب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفني من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبيننا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظني بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسي لأفرغ من التحصيل بأسرع ما استطاع ، فيتسنى لي بعد ذلك أن أكسب رزقي ، وأنقذ نفسي وأهلي من هذه الفاقة التي منينا بها لغير ذنب جتيناها .

وترك هذا كله أثره في نفسي ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه ، وصرت أشعر أني غريب إذا ألفت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر في وهمي أنهم لا يخفى عليهم أني نشأت فقيراً . واني امتحنت في صباى أقسى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا مخيلة مقصودة يشقون لي بها جفوني ويطلعوني على ما بيني وبينهم من بون .

وكنت قد كبرت وأصبحت معلما ، وعندى فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يررثني هذا عتده نفسية أو « مركب نقص » كما يسمى . فعاجلت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا في حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعي ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطليل ، ولا يحيون حياة صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل ، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بها السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أنى أسرفت على نفسي وعلى الناس . وتبیت أن لا داعى للمرارة ، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزماً وثقة بالنفس وجراً على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت في نعمة مابغة لكنت حرياً أن يفسدني التدليل ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن ييؤ البريء يلثم المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرئ يزل ، والعصمة لم يؤتها لإنسان وحتى ما جنى أخى قمن بالغفران . فما هو في ذاته بالذي توصله دونه أبواب العفو ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبل على غاربى كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهدها إلينا من الكرب الجسام ، فهو جنير بالثناء والرحمة والنقمة . وما شهدت النعمة التي تقلب فيها زمناً وجيزاً ، ولكنى شهدت الندامة التي ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن منى ، ولكنه هو كان أشد توقيراً لى منى له ، وأعظم بهى تحفياً . ولما نشرت أول كتاب لى - وكان ديوان شعر - حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة ، فتناولها معجباً ، وقلبها جذلاً ، وشرع يقرأ ، فما راعنى إلا دمه المنهر ، من فرط الحنو والزهو . فنهضت إلى زوجته وتشاغل بالحديث معها ، فما أطبق البكاء ، ولا أعرفه ، وإنى لأدرى أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لأمريء عبثاً      الله أدرى بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتا عبراتى وعلمتنى أن أبكى بقلبي دون عيني ، وأن أسترضعفى عن الناس ، فلا أبلو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة .



والفضل في ذلك لأى ، فقد جثتها يوما أبكى لأن غلاما ضربنى فأوجعنى ،  
فمنظرت إلى باسمة ، ولم تربت على كتفى ، ولم تكفكف دمعى ، ولا واستنى  
ولما قالت لى : « رجلنا يبكى » ؟ فإذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟  
فخجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت - كأنما كنت فعلت - « ولكنه  
أكبر منى » قالت لاشك ، ولكن حيلتك ينبغى إذن أن تكون أوسع ، فما  
غلبنى بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما ، حتى خافنى صببية الحارة  
وحرصوا على اتقاء شرى .

والعبرة بالخوانيم - وقد انتقلت بى الحال بعد طول الضنك إلى سعة  
مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ووجدت أن التسامح الذى  
مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة  
النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان .  
والفيتنى أغتبط بأن أتللمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز  
هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معى فى نعيمى بها ، وأحاول أن  
أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضىء لهم وجوه العيش وتمنحهم  
الدفء ، وتشيع الابتسام والجدل فى وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم  
من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا ، وأن أجمل ما كان يبدو لى ولهم  
حميما ، وأزين العاطل ، وأرقق الماء فى حواشى النسيم ليعود أندى على  
القلب وأثلج الصدر .

وتوسعت فى هذا وتعمقت . فقلت : إنى مثل الناس غيرى ومنهم ،  
وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقا قائما بذاته ؛ أو بدعا فى هذه  
الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعنى أن أعرف  
نفسى ، فصار دأبى بعد هذا أن أخلو بنفسى ، وأحاسسها ، وأراجعها ،  
وأغوص فى أعماق أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغرى بها غرائزها الملهبة

أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها وتقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدى كلدا بدا لي ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسي في مكانه ، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أنني كنت محله ، وكان يحيط بي ما يحيط به ، وكان لي مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد - غير مغرور أو مخلوع فيما أرجو - أعدل وزنا وأكثر إنصافا ، وأسرع إلى تمهيد الغدر مني إلى سوء الرأي .

وليس معنى هذا أنني الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون ، أو أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكنني أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسنى ، أجلى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النقرة ؟ . إن الذي له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدي إلى وسيلة الإصلاح ومداه وليست ثورة النفس بالتي تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا في التفكير ، وأن تجمع بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذي يعين على الإصلاح والخير ، والتفكير الهادئ والتدبر الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأي ، والخلق في التدبير ، ولا سبيل إلى شيء من هذا إذا اهتمجت النفس ، وقامت قيامتها واثارت كالألجة المربدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدري سوى أنني أطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوابها ، أصبحت أعتقد أنني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صافية - لا مزورة ولا مموهة - من هذا الإنسان الذي هو أنا ، والذي هو أيضاً كل امرئ غيري . وليس هذا بالمطلب الهين ، وما كان مناله قط ، ولن يكون دانيا . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء

أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان محدودة ولكنه ليس عاجزاً كآل العجيز ، ولو أن آكل إنسان أخاص وصدقت سريره وبذل ما يدخل في وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد ، أنى أقول لنفسي إذا أنا لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذى يفقد الخطى وراء جيلى ، فما خير أنى كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألمت الحقائق ؟ إن من الأم الأم أن تبذل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذى يضمن بالرخيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفى الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه ، فى خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات فى المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو ضئوه وفائدة كبده لأن التضور وخوف التلف الوحي يثيران غريزة حفظ الذات فيدلل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهى لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفى وسعك أن تهدي منها ولا تخش عليها النقص ، ومن المحقق أنك أحرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك والطف حسا .

فالضن بالمعرفة ضيق عذل وسوء رأى ، ولو لم نفس وخسة طباع — بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما — لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت و ألم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت فى الدنيا بالوحيد الذى ينظر فيجد ، ويبعث فيتهدى ، ويعالج فوق .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقى فاستطردت . ذاك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأموال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع فى الروع لأول وهلة أن الخبر شئ آخر .

## - ١ -

تلك كانت حياتى - فقد نشأت فى بيت صارم التقاليد فى ساحته الواسعة مصلى ومبضأة ، وعلى جانبيه مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلي الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلًا لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالخلوة ، وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة أخرى ، وتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « القول النابت » والخبز .

وكان يروقى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأبلى الورد الذى يتلونه ، وأصلى على النبی كما أراهم يصلون ، وأهز رأسى وجسمى فى الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول - عبثاً - أن أجعل صوتى غليظاً عميقاً ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبى فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبى ، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبى وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصاداً فى النفقة ، وعز على ذلك فى أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته الرحبية وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب

أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ماعدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر  
أنى كنت أدخل على أبي فى مكتبه وعنده أصحاب النضاييا ، فأقف إلى  
جانبه وهو مكب على الرق ، وأنا ساكت لأقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى  
يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا .  
أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده فى جيبه ثم يخرجها بما تخرج  
به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أعطيته ،  
فألقى أخى الأصغر ينتظرني عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد  
بائع الدندرمة .. فنضع إليه مامعنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو  
لأنحمده فنميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات وبليا وما إلى  
ذلك - فبدد الفلوس والسلام وكان أخى أصغر منى وكان جميلاً مشرق  
الديباجة سمياً وبضاً غصاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن  
هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوماً  
أنى كنت عند عمى ، فلما مر « بائع الدندرمة » أقبل عليه الغلام  
بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجاته ، ولم يجد أخى معه ثمن ما أكل ،  
فخلع طربوشه . وعرض على الرجل أن يقبله بديلاً من الثمن وكان أخى  
ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فضى الرجل به ولم  
يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عيني ، أن جدى دخل على أبى  
فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً وأفسح الزباين له  
ليقعده ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبى وطلب منه شيئاً ، فاستمهله هذا  
فما كان من الجدل إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كتف أبى ، فتأوه  
واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ،  
وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت .

وكننت أنا حاضراً هذا الذى حدث ، فشق على أن أرى جدى يضرب

أبي بهذه المراوة الضخمة ، فخرجت إليه فناداني وأدنانى منه وأجلسنى  
على حجره وشرع يلاطفنى ويدعوى لى ، ولكنى كنت مغيضاً محققاً فتناولت  
شعرات من لحيته الكثة وشددتها وفى نيتى أن أنتفها كلها عقاباً له ،  
فزجرتى وأدار وجهه ورفع يده له لتخايص لحيته ، فبدأ لى قذاله فصفعته  
فطار عقله ودفعنى فارتيمت على الأرض ورأيتة يميل على هراوته ويتناولها  
فوضعت ذيلى بين أسناني وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدى شهراً يأبى أن يكلمنى أو ينتظر لى ، وأنا أكاد أجن  
من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه لى الرضى كتب لى  
حجاباً وجلده - حفزاً له من التلف - وعلقه على جنبى الأيسر ليقبى  
الله سوء الأدب ، إذا كان قد وقع فى روعه ووقرفى نفسه أن الناس حسدوني  
فكان منى هذا الذى أسخطه على .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه  
أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت . . .  
هذا لثم كبير ومعصية توصل من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء  
أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب  
أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت ألا تكفيها حجرات البيت التى  
تطل نوافلها على الطريق وعلى فناء الدار . . . وصحيح أن الشبايلك  
مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفى ؛ بل كان من  
العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيج عنا الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على  
الغنم أو الدجاج ، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبايلك المسمرة مخافة  
أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ؛ أو يصادفنا « السماوى » فيبيتنا ،  
أو يظهر لنا عنفريت فيركبنا أو برعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل  
العقاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميل وتزهق أرواحنا فى الغرف

المكتومة ونشهى أن نتعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفاقة اللمعان ،  
ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا في مثل سنى ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ  
نهش إلى الغرف في الليل فتأبى أمي وأمها ذلك علينا وتصرفاتنا عنه لأنه عيب ،  
وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها — تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها  
وقد تضربها علقه ، وتجرني أمي من يدي أو من شعري إذا حزنت ، أو تحملي  
وأنا أضرب بيدي ورجلي في الهواء وأصرخ وأصيح وقرقلني برغم أنني على  
السريـر وتغطيني بالاحاف وتروح تحدثني عن العناريت وتصف لي ما تصنع  
بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروي لي  
قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريرة المرتزرة » و « أبي  
رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما فأنضاعل ويدخل بعضي في بعض ، وهم  
بأن تركني وقد اطمأنت إلى سكوني ووثقت أني غير مفارق فراشي في ليلتي  
تلك ، فأصبح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبي لأن « اللحاف » يحرق  
في بعينين قدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لي عليه رسم يشبه  
ما سمعت من أوصاف أبي رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من  
الجدار ويميل على بأسنانه وأظافره .

وبعد لأي يغلبني النعاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريـت والإسـاخ والليل المخوف  
والنهار الذي يعيد الطمأنينة ، والسلام المظلمة وما ينحني لي عندها ، ولم تكن  
أحلامي تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت في منامي أني لاعبت هذه أو  
تلك من البنات وأن أهلي دهنوني بالسمن والعسل وقيدوني ورموني في ركن  
حالك السواد وتركوني للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات .

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملاً ، وهناك توضع قدمي في  
« الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » — فقيه الكتاب — « بالخريدة » أو « المقرعة »  
أو بكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهذا يبدأ النهار .

لم يطل مكثي في « الكتاب » لأن أمي أصرت على المدرسة . وكان أبي مشغولاً عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى « استنبول » فكان يقضي هناك ما شاء الله أن يقضي - شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويجيء بغيرها وأظنه كان يحب التركيات وبوثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذلك فما ورث عنه إلا تقيضه ، ولست أعني - كما لا أحتاج أن أقول - أني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعباد بالله ، وإنما أعني أن اللون الأسمر أثر عندي وأحب إلي ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن في منزلة واحدة ، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولنفسى ، فإني أسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولعلني أكره أن ترهني على واحدة بياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه :

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنية أنفها آثار أسنانه ، ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزراً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب ، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمناً ويسره فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها :



ولم يهجر أبي ( البيت الكبير ) في سبيل هذه الزوجة الجميلة - فقد كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معزوراً - ولكنه كان يقضى عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته في البيت الكبير فكان يقضيها مطرقاً يسمع التفرغ والتأنيب من جدى تارة ، ومن أمى تارة أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لا يزيد على الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإني أحقق طياش سريع الغضب حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبي أن أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلاً عن عمله المضنى ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنيه الصغار ، وكان لنا أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الشهر الأحمر ، ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلى الفجر في مسجد الحسين ، فخرج مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألقى باب المئذنة مفتوحاً ، وكان المؤذن شيخاً هرمًا ضخم الجسم ، كالقيل الصغير ، وكان أعمى ، فخطر لأخى أن يعاينه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي لا يدري أن وراءه هذا الشيطان ، وأنه ليرفع الصوت بالآذان ويصيح في سكون الليل ( حتى على الصلاة ) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة ويصيح متمماً ( حتى على الفلاح ) فريغ الرجل وله العذر ، وكان ضخمًا كما قلت ، وعلى صدره قنطار من الشحم ، وكانت صلصة المفاجأة عنيفة فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدام المسجد بالبحث عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضياً عن نفسه ونام نوم الصالحين .

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو

الذى زهد أبى فى التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخى فى هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يفرى الطلبة زملاءه بالخروج فى فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدلها من النافذة ويتخذ منها هوزملاؤه حبلا يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ، وتماسكا وتضاربا فانكسرت ر. ل الضابط ولا آخر لحوادث هذا الأخ وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعا بالعبث .

وكنتم فى السادسة أو حوالى ذلك لما أخرجتنى أمى من « الكتاب » وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيدا لإدخال مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلا » واحداً للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة ضيقة ، توصلد علينا بالفتاح ؛ فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى فتلقى فيه الدووس وهى الساحة التى ناعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً وكنا إذا تركنا المعلم نرحل الأدرج عن موضعها . لنفسح مكانا لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نجري « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ وغرم آباءنا ثمنه .

وكان مساعد المدير رجلاً فظاً كما قلت - إذا أخطأنا أو قصرنا - يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العصى بالخيزرانة . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكساً وركلاً ، ومزقنا له سترته الطويلة - الاستانبولين - وخطفنا العصا من يده وأذقناه

وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاحين .

وكان ابن زوجة أبي معى فى هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحث بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة فى شارع « تحت الريح » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبى ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى فى شارع محمد على على ، مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللى » وأظن أن زوجته هى التى هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركيا ، وفى هذه المدرسة كان الضابط - وهو تركى أيضاً - يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان فى يده ، وكان يكفى أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبى أن ينقانى إلى « فعمل » أرقى ، لأنى صغير السن ، فبقيت فى السنة الأولى عاداً آخر بلا موجب سوى حذقة هذا المدير أو الناظر الذى امتنصأل جسمى واستصغر سنى ، واستكثر على السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمى كتبى وكراساتى ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقرانى ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبى حسرة ولطفة . وأسمعهم يصفوننى ، « بالعقل » و « المذوء » فألعن « العقل » وأذم « المذوء » فقد كنت مكرها على ذلك لمدفوعا إليه بطباعى وميولى ، ومتى رأيت طفلاً ساكماً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض

أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجري وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته .

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لارغبة في التعليم ، ويراني أبي فيشتاق على عيني أن تؤنّبهما القراءة في الليل ، فينهاني عنها ، فأطوى الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعاً بهذا الصمت ، فأفتح فسي وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرني ، ويقول لي : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول أنه ليس هنا صغار أحشر نفسي معهم فمع من أتكلم ؟ فيعبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفذ صبري فأعود إلى الكلام فيقول لي ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعرض بأبي أراه يتكلم وأرى أمي تتكلم فلماذا يليق بهما ما لا يليق بي . فيبتسم ولا أدري لماذا . ويربت لي على كتفي ويخدي ، وقد يقبلني ويمسح لي شعري ، فأتململ وأقول له إنني أريد أن أتكلم وألعب فمع من ؟ بنت الخادمة لا يليق أن ألاعبها لأنها بنت ، وأخي أصغر مني بأربع سنوات وهو على قل نائم :

فتحملني أمي إلى الخادمة ، وتوصيها بي ، وتتركني معها ، فتسري عني بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبني الناس :

وكنت أرى أبي يدخن وهر متكىء بكوعه على مخدة فيتلوى الدخان في جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأتبعه بعيني تارة ، وبأصبعي تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أقلد أبي : فجئت بورقة ولففتها على صورة السيجارة وجعلت أضعها في فمي وأنا متوكيء على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبي ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضربت النار في اللقافة واتفق أني وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو ، وأختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة في البيت ، وكان

كل من في البيت يجرى بالطشوت والأباريق والقلل لإطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت . وكان السقا يمر بنا كل يوم فيلاً لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة ، ولا سيما في الأحياء الوطنية ، فلا تليفون ولا ترام ولا سيارات ولا شيء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافئ تتقاضى خمسة جنيهات إذا دعيت لإطفاء حريق . على أنى لا أدري بماذا كانت تطفئ الحرائق ولا ماء هناك يجرى في الأنابيب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقني القراء ، والمثل يقول « يعملها الصغار ويتع فيها الكبار ، أى والله :

كان لأخى الأكبر زوجتان من قريباته تقيان معنا فى بيت واحد لها منه الدور الأوسط ، ولنا جدتى وجدى وأبى وأمى - الدور الأعلى - وللمكتب الغرف - أو المناظر - التى كانت فى ساحة البيت ، أو فناءه . وكان أخى - كأبى - مزواجاً . فأما أبى لأعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف فى أسرتنا كلها من كانت له زوجتان فى وقت واحد ، أو من طلق زوجته أما أخى فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين فى حياة أبيه ، وهو لا يكسب قرشاً بعرق جبينه ، ولا مورد له إلا مايجود به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه زوجه وهو صغير - كما كانت العادة فى ذلك الزمان - ليفرح به ، وكانت ليلة الجلوة ليلة سوداء أعنى أن السراىق أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغنى يصعد إلى « التخت » وإذا بنبأ يجرى من سمخراط أن المرحوم إبراهيم أفندى الوكيل توفى فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا فى جندل وسرور وجور ، يتهياون للسفر إلى المآتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخى نسلاً ففاق أبى ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علتة من « الولد » فما العمل .. العمل أن يزجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » - أعنى أن أخى - ظل لا يعقب شيئاً ، ولم يفتد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخى هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبى أمى ، وقد شاعت الأقدار أن يكون نسلها عتياً ، وأن يحرم ابنها - أخى وأختى - بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب فى الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وأن تحتل ما يبيده بعلمها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلاً طلق أمه - أو ماتت لا أدري ، فتولت هى تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس فى حياته وأحنهم عليها وأعمقهم حزناً لما وافاها الأجل .

وأعود إلى أخى بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبى ، فتد كان السهر والتدخين محرماً على غير جدى وأبى ، فأما جدى فكان يتخذ ما يسمى « الشبك » - بضم الشين والباء - وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها بحشى شئ بالدخان وتوضع عليه الحمرة . وأما أبى فكان يتخذ السجاير ولكن ما كان مباحاً لهما ، كان محرماً على سواهما - لا أدري لماذا - وإن كان أخى ذا زوجتين .

وقد رأيت أخى مرة يدمس السيجارة فى جيبه وقد خرج عليه أبى فجأة فتحرق الجيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبى يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين ، حدثنى أخى بعد أن كبرت وأصبحت رجلاً مثله لى شاربان أفتلها ولحية أحلقها ، قال : ( لم يكن باقياً على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لى أن أقص شعرى قبل أن أذهب لى الحمام ) - وكان أخى مغرماً بحمام السوق أو الحمام التركى ، يؤثره على ما عداه - وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كثة

هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها ، وسئمت فوطته الحمراء المخططة ، والنطشت  
الذى يضعه لى عند رقبتى ويترك لى حمله ، فيسيل الماء الذى يصبه على  
رأسى بلا حساب ، على ثيابى وينفلد إلى بدنى ، فقلت التمس حلاقاً آخر ،  
وذهبت أجوب الشوارع وعينى على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من  
الأحياء الوطنية ودخلت فى الشوارع التى يكثر فيها الأجانب ، واهتديت إلى  
حلاق أجنبى ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل على برح بى ، وأجلسنى  
على كرسي وثير لا عهد لى بمثله ونشر على صدرى فوطة بيضاء مكوية ،  
لها كمان يدخل فيها ذراعائى ، وقص شعرى ، ثم نفص الفوطة وجاء بغيرها  
وحاق لى ذقنى بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح على أن يصنع كبت وكبت  
مما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل  
أهزله رأسى أن نعم ، كلما عرض على شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور »  
فهزرت رأسى موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعنى ، فدعانى إلى ماوراء  
ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدري من أى الفراديس جاءت ، وقال لها  
كلاماً فابتسمت لى وتناولت كفى الكبيرة الخشنة التى ينطى ظهرها الشعر ،  
وعكفت على أظافرى تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لى به  
وأنا أكاد أموت من الحجل ، وصدقنى حين أقول لك إن هذه أول فتاة  
غريبة لمست كفها كفى ، فإذا أضفت إلى هذا أنها كانت ساحرة الجمال ،  
ذهبية الشعر ، وضاعة الحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن  
ابتسامتها فاتنة ، وفى صوتها علوية تذيب المرء ، وأنها هيفاء ممشوقة ،  
وخفيفة لطيفة ، وأن فى نظرتها ليناً يغرى بتطويقها وضئها ، وأنى ما عرفت  
من النساء إلا البدينات اللواتى يخفقن روجهن ما عليهن من أكداس اللحم — إذا  
أضفت هذا كله — فإن فى وسعك أن تدرك عذرى حين أقول لك إنى عشقتها .  
ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكننت أنظر إليها كالآبله ، ثم فتح الله على ، وأطلق لسانى من عقاله  
فقلت وأنا مضطرم الوجه من الحجل : إنى لم أكن أدري أن المانيكور هو



هذا ، وإنى آسف فإن كفى كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ، وأحسب أنه لا يليق بي أن أدعها تصبغ لى أظافرى ، فإنى أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدى حتى يذهب هذا اللون ، وهممت بأن أنزع يدى من يدها ، فشددت عليها ولم تركها لى ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها فى حياتى :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الحشنة ، وإن أكثر ماترى من الأكف لين بض غض كأ كف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها فى جواب ذلك ، ولكنى أنفت أن تصبغ لى أصابعى ، وأبيت أن أناولها يدى الأخرى وقلت حسبي واحدة ، وسألها : متى يزول ذلك ؟ فقالت : « أوه ! إنه لا يدوم . . لانتخف » فاشتبهت أن أقول لها أنى أحب أن أراها مرة أخرى ، ولكن لسانى وقف فى حلقى ، فلم أنطق بحرف ، واكتفيت بأن أمد لها يدى مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهزرتها كأنما كنت أصافح رجلاً فأدهشنى أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابى السخيف : « ولكنى لا أستطيع أن أقص شعرى كل يوم » فابتسمت وخيل إلى أنها تكاد تميل على وقالت :

« إنى أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساءً » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فسانتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخى وهو يقص على هذا الخبر : « وقد كان . . تعلقت بها ، وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفتني أشياء كثيرة لم أكن أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت ، وقد أطلعنها على كل شيء ولم أخف عنها شيئاً ، ففهمت وعذرت ، وبقينا صديقين حوالى عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعتها بالرضا به إشفافاً عليها ، ورضية فى الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمانى  
لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرهما ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي  
تناولت يده لأقبلها ، فسألني :

ما هذه الحناء التي في أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفي ظني أنني  
لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إنني  
لما عرفت ما هو أبيت أن أصنع أظافر يدي الأخرى ، ولكن وجهه أربد  
وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن » ونهض فدعا إليه الخادم  
« العم محمد » كما نسميه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه  
ثلاثة من الزبائن الأقوياء ، فأشار إلى فربطوني بالحبال ، وألقوني على  
الأرض ، وأنا من فرط الذهول لا أقاوم . وجاء أبي بخيزرانة طويلة  
وأهوى بها علي ، لا يتقى شيئاً ولا يبالى أين وقعت وماذا أصابت من بدني  
ولم يتقلني إلا خالتي ( يعني أمي ، فقد كان يدهوها خالتي ) فقد  
أسرعت وانحدرت إلى ولم تبال هؤلاء الزبائن ، ولم تعباً بظهورها  
أمامهم سافرة وفي ثياب البيت ، وارتمت علي ، وجعلت نفسها بيني وبين  
الخيزرانة فاضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى « المناظر »  
ثم خرج .

وأتى أنا الحكاية فأقول إنني توجعت لأخى وحزنت لما أصابه من  
الضرب الأليم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع  
شيئاً ، وإلا حل به غضب أبي ، ولكنني كنت طفلاً لا أدرك هذا إدراكه ،  
فصممت على إخراج أخى من محبسه وفك وثاقه . وكان لابد من الحيلة ،  
ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخى الأصغر ، وجلييلة بنت  
خادمنا ، وكان مفتاح « المنطرة » مع الخادم فلم نزل به نلعبه ونتمجج منه  
غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت إلى أخى وجلييلة أن يبعدا به عن فناء

البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعزاني حل الحبال فجئت بسكين وتطعتها ،  
وأطلقت سراح أخي وقد ظل يحفظ لي هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغي أن أذكر أني عدت إلى الخادم فلمست له المفتاح في جيبه  
وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخي كيف  
وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التي كان موثقا بها ، وأن يفتح الباب  
ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه !  
لقد كان عفريتاً ، .

وكان هذا أول سر حرصت في طفولتي على كتمانته .

قلت لنفسي بعد أن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، « اسمع يا هذا ، لقد رأيت أباك يضرب أخاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك — كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطعة الأليغة أو كلب البيت الذي يتبل منه أصحابه العبث ولا يرضون عنه أه يسرون به إلا إذا لعب وتشيطان وأظهر لهم نشاطه وذكاءه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أملك حية ترزق ، وفي البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامي عنك وأخولا كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لا يسعه إلا أن تثقل عليه الشعور الخفي بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوماً بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذي سيحل محله عاجلاً أو آجلاً ، كما حل هو محل أبيه — أي جدنا — وإن كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواعث الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنة في الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طبل بالغاً ما بلغ طوله وعرضه ، أو لا أدري ما العلة والباعث الصحيح ، وأنه ليخطر لي مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقنعني .

وخطر لي وأنا أحدث نفسي بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا في نظر الأبناء ، ولا يمكن أن

يعد الابن أباه إلا شيخاً هرماً ، تقضى شبابه من زمان طويل ، ولا يمكن أن عليه وتعرى هو منه ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ القانين ولو كانت الحقيقة أنه ما أنفك قويا كفتا للحياة .

وذكرت - وأنا أدير هذا المعنى في نفسى - أنى لم أسمع ولم أر قط : فى طفولتى ، شيئاً - كلمة أو إيماءة أو نظرة - تشى بالحب بين أمى وأبى . وكان يخيل إلى أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ . ولكنه هو الذى كان يبدو لى فى تلك السن الغضة . ولقد مات أبى وأنا صغير وخلف لى أمى فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع فيها السراد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ما طابت به نفسا فى حياته ، ولكنى أظنهما كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألهما فبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى فى كهولتها الذاوية ، وألح عليها بالسؤال فتهرنى ، وترجرنى عما نظته عبثاً منى ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين فى هذا الرجل المزواج المتعب الذى جعل حياتك معه جحياً فائراً بالنيرة » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لاتساوى الظفر الذى كان المقص يطيره من أصبعه » وترانى ابتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحياناً تطردنى من مجلسها ، وهى تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لى « قم . طيب قم . كنى قلة حيا . » فأنهض طائعا وأميل على رأسها فأقبله فترضى عنى وتدعو لى فأقول لها ويدع على الباب .

« اسمعى . لم أعرف أبى كما ينبغي أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذى عرفته مضافاً إلى الكثير الذى سمعته منك ، يقنعنى بأنه هو » لم يكن يساوى الظفر الذى يطيره المقص من أصبعك وعزيز على

أن أقول هذا عن أبي ؛ فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة ، وإذا كنت أنحسه حته فذاك لأنك عندى بمنزلة لاتدانيها منزلة ، أنت خير الناس وسيدة الدنيا ؛ وكل من عداك هباء . وأسمى أيضا . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معى فى الدنيا . مجرد شعورى بوجودك يرفع نفسى ، ويعصبنى من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتنى أسأل نفسى - هل ترضى عنه أمى لو علمت أو لا ترضى - فأقدم أو أحجم تبعاً لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياى لما بقى شيء يصدنى عن الشر والرديلة ، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكنى مقتنع أنه لو كان أبى حياً لما أمكن أن أحتمله ، ولا اطفأت ان أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك - وأنت سيدتى - تدعينى أشعر أنى أنا السيد ولكنى أظن السبب أنى أحبك وأجلك ، وأنى مدين لك بكل ما جعلنى كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، فى بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان معى هذا موجوداً ، بين أبوى على الأرجح - وان كنت أنا لا أرى دلائله ومظهره ، وبين جدتى وجدتى على التحقيق . وكان جدى قد قارب المائة ، وجدتى قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كائناً ما كانا ولم يكن أحلى من تناجى هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حل الطنولة وسداجتها وطبيتها ، وكانا لا يعبآن شيئاً بوجودى ، وهما كما يقول الشريف الرضى :

تساقينا التذكر فانتينا كأن قد تساقينا الطلاء

وكان الذى يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة ، مما وقع لها وجرباه ، ولكن الحنو ، وعذوبة الصوت ، والنوبان ، وحلاوة اللمة فى العين التى انطقاً نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « دل تذكرين يا حاجة .. » فتهز رأسها المصبوغ بالخناء

ويفتقر ثغرها الأذرى يومض السرور في عينها ويشرق به وجهها الأحمر —  
فقد كانت بيضاء حلوة — وتقول « ايه » ممطوطة طويلة ، ولكنها « آية »  
الرضى والحمد لله والاعتباط بجمال الذكرى . لا الأسف والأسى ، فقد  
كان حب هذين المهملين من الدنيا ، لإنهما معافيهما ، وأن غرفه واحدة  
تجمعهما ، وأن لما بنين وحندة ، كلهم أحياء وبخير والله المنة ، وكنت  
أرى منها ذلك فأدرك أنها مسروران وإن كنت لا أدرك كنة السرور ،  
وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غضنهما السن وحفرت فيهما  
أخاديد عميقة ، فأرتنى على جدى وأطوقها وأقبلها ، فتضنى وهى تقول  
ضاحكة : « إوع تفعضنى يا ولد » ثم تهوى على رأسى أو خلى بضمها  
الفارغ وتقبلنى فيكون لقبها صوت كقولك « مق »

وأنا الآن رجل ، ولى زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئة الله  
أن يكون لى بنات على ابثارى لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذى  
عاش فيه أبى وجدى من قبله ومع ذلك أرانى أستحى أن أقول لزوجتى  
أنى أحبها ، وأشعر أنه لا يابق بى أن أقول ذلك ، ولى كل هؤلاء البنين ،  
وأحس أن زمن الكلام فى ذلك قد فات وهو لم يفت فى الحقيقة ، لكننا  
جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا — عرفنا لماذا يحق للمرء أن ينتظر ،  
سحره ، وزالت فنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس  
ومغالطتها وإيهامها .

وياربما قلت لنفسى ، حين أخلو بها وتدفق خواطرى فى هذا المجرى :  
« لماذا أخجل ان أقول لزوجتى انى احبها ، امام هؤلاء الأبناء . . . »  
واقول فى جواب السؤال ان هؤلاء الأبناء يروننا كبارا ، ولا يتوقعون  
منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلهم يظنون بنا اننا كنا فى صدر حياتنا  
كل شيء إلا شبابا ، ويهيجنى ذلك ويشير نفسى فأقول ساخطاً معانداً :  
« ولكنى لا انوى ان اجعل حياتى وفق ما يظنون ، قاتلنى الله ان فعلت ،

وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان - من الأهل أو الغرباء - فأتعمد أن أثني بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجرى مع العناد ، فأحس كبح الحجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحه ، فيظن السامعون أني أهزل ، وتعرف هي أني أجد .

فلا فرق بيني وبين أبي ، وأن كان بين زميننا كل فرق وما زلنا ، تحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التي تصدنا وتاوى رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق بحر وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يثنى به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة أني أحبها بالغاً ما بلغ جنوني بها ، فإذا شق على الكبح ونازعني نفسي أن أقول ، قلت ولكن مازحاً ، أو متظاهراً بالمزاح منصنعاً له لأشككها ، ولأنني استحي أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأنني أشعر أني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبداً - أعني عتداً للسرّة لا للكلمة - وأنها حقيقة إذن أن تتخذ مني حصاناً تركضه بين بين الوعور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت : وأنا في كل يوم أقيد نفسي وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وههنا ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زملامي في يدي ، والأمر كله إلى إرادتي ، فإذا شعرت أن بدأ أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي ، وفقدت اتزاناً وركبت رأسي ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صياني ، وأنني لو وكلت إلى نفسي ورأيت لما فعلت إلا ما يراود مني أن أفعل ولكن طبيعتي تغلبني فأشقى ، بين دعوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخى . وهم في هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفية عن الوالد ،



ووسيلة لراحته من ثقل الشعور الذى يجيش بصدرة ، فهو شيء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس فى زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويجنبوهم التنغيص ، وهما جميل ولكنى أحس أنهم يبالغون فى الرفق ويسرفون فى اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغى وأخلوا من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعى لإجهاد الفكر أو ما يستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم بضربون أحياناً – يرفق أيضاً – ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها .

جرى هذا بيالى وأنا أكلم شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا فى شيء من الهندسة فوافقنى على رأى كان يعرف كما تدينى فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً فى مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفنى ، ولم يصحح لى غلطى فإذا كان هماً لا يضرب حتى يدمى جواده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب مادام يعتقد أنه على حق – فمن غيره الجدير بالضرب . . وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطرى لتجعل من ابنك رجلاً يعرف قدر نفسه ويكرم عقله . . أما أنا فسيلى كسيل أبى ، ولست أستعين « بالزبالين » ولا أنا أقسو قسوته ، ولكنى لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجبنون أو يكذبون أو يكون الغير « ما ييكى الرجل » وقد جاعنى واحد منهم وقال أن تلميذاً معه فى المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه . . وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه . . فكانت نعم هى جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيماً وقلت له « ألم يكن فى

الشارع حجر تتناوله وتقلعه به فتفتح له قرنه . . قال « بلى » قلت « لماذا  
تجيتنى باكياً وفي وسعك أن تنصف نفسك منه » . وأنذرتة أنى لا محالة  
قاتله إذا تكرر منه ذلك ، ولم يكن القتل ما أعنى ، وإنما عنيت الضرب  
: الأليف ، وقد فهم عنى الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فأنفوا عنه  
وهابوه ، وقد احتجت بذلك أن أجهل جرأته غير راجعة إلى مجرد  
الخوف منى .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التى تفضى  
إلى التخث .

### حليمة وعم محمد

كان خادمنا رجلاً يدعى « عم محمد » لا يعرف أحد من أين جاء - حتى ولا هو يعرف ، وقد سألته من أى بلاد الدنيا هو ، فشوّر يديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسى ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادمها الذى نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، فى ظلها ، ولم يكن أحد ينصو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة - جدى وأبى ، من الرجال ، وجدتى من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم فى ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه فى حدثى ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكنى أنظر إليه الآن - فإنه لا يزال حياً يرزق - وأرى كيف كان يمشى معتدلاً القامة كالسيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجله ، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى فى هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لا يزال يشرب « البوظة » التى أعرفه - مذ عرفته - كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلى أنه كان دائماً هكذا - بشاربه الخفيفين ، وأسنانه القوية التى لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة . ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحذائه الأصفر الباهت الذى يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه

بطرف المعطف العتيق الذى خلعتة عليه منذ خمسة عشر عاما ، ويأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر - كما كانت تسمى - وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيداب فإن لمن خادمتهن التى لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليلة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هى التى تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شيء فتقف على آخر درجات السلم وتنقر على الباب فيجئ إليها ، فحدث ما كان لابد أن يحدث - أحبا وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدى ، وهو جالس على كرسية فى الدهليز وفى يده نبوته وشفته تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد « حليلة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين ، ووعد أن يخاطب أبى فى الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان - تزوجا . وصارت حليلة ، تنتقل فى الليل إلى غرفة « عم محمد » فى البدروم كما يسمى فى مصر ، أو السرداب كما يسمى فى العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونه وبساط قديم مما كان فى البيت ، وكانت حليلة هذه قوية جليدة لا تفر ولا تن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، فى البيت - تكنس وتمسح وتغسل . وتنفض وتشيل وتحط ، وترتب ، وتغربل وتعجن وتخبز وتساعد فى المطبخ ، وتطلع تنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت

إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضي الشيخ وتعد له  
« الشبوك » والقهوة . .

! وحملت حليمة ، فعظمت بطنها ، فأرادوا أن يترفقوا بها ، وأن  
يعقوها من عملها الشاق حتى تضع حملها ، ولكنها أبت وظلت تروح وتجي  
وتشيل وتحط وتقوم وتقع ، وهي سرورة وزاد وجهها إشراقاً ولمعت  
عينها بنور البشر والجلد .

وكان جدى يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب  
ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد  
الباب ، ويصفق عم محمد فتطل عليه حليمة من إحدى النوافذ - فما بقي  
من هذا بأس بعد انصراف الرجال - فيسألها « عاوزين حاجة . . »  
فتفسر ثم تخبره ، ويطمئن فيخرج متسللاً ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود  
وهو يتطرح من السكر ، وكان لا يشرب إلا البوطة وكان جدى ينهأ ويعظه ،  
وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يزعج ، حتى يشأ من صلاحه فأهمل أمره  
وتركاه للأيام ، فلم تزده إلا حباً « للبوطة » .

وقد سأله مرة « ألا يمكن أن يزهدك شيء في هذه البوطة . . »  
فأجابني بسؤال « أهى حرام . . »

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » .  
فتنظر إلى مستفسراً مستوضحاً فقلت أعني أنك أصبحت تفنى . من  
طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لي . إنك تشربها منذ نحو سبعين  
سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خالق بعدها أن يعمل  
الحياة ، فكيف بالبوطة . .

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه ياسيدي » .  
قلت « معذرة . لنذع السن . ولكن ألم تسأم » .

قال « لم يبق لي ما أتسلى به سواها . »

قلت « وحليمة »

قال « حليمة . الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم »

فأقصرت ، وبودى أن أسأله « ألا يزال يحبها » .

وكانت ليلة أحيائها « عم محمد » بالسهر في البوطة وهو آمن ، فقد كان جدي نائماً ، وأبي في بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألتى حليمة راقدة ، ولكن عينيها مفتوحات ، وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغرباً ابتسامتها وكانت عاداتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون في خدمته حتى ينام فلما طال تحديقها فيها ، تحت الملاءة ورفعت ماتحتها ، على كفها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح يبكي - بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت »

قالت « خروجك كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل في هذه الحالة .. »

فسألها « كيف .. من كان معك .. »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعي .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخن له الطعام وقدمته إليه ليأكل ، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوى من البوطة فعكف على

طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليجيشها الخاض فتشدد  
وتحتمل آلامه في صمت ، وتضع وحدها وبلا معين ، وبعد ساعة أو ساعتين  
ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا متهاقنة ولا مسترخية وجلال مخاطره أن حليمة  
آية من آيات الله . وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحدثته نفسه : على  
ماروى لى أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن  
معاقره البوظه ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه في القوطه « يجب أن تستريحى غدا على الأقل،

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. »

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلها وتركها  
وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم – وقد جاوزت الستين – أقوى وأقدر على  
العمل من عشر فتيات فليس أعجب من « عم محمد » إلا امرأته التى لا تكل  
ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة – ابتسامة العطف والرضى والتسامح ،  
وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها ، ورضاها وتسامحها ، وكان حسبي منها فى  
كل حال أن تنظر إلى بعينها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المقترب فتسكن  
نفسى ويشيع فى صدرى الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبى ، ولا يسعنى إلا أن  
أجيبها بابتسامة . فتهز رأسها على مهل وتربت لى على كتفى وتمضى .

صلى عم محمد فإن حليمة آية . . . .

## - ٦ -

الحادثة الثالثة أن « جليله » بنت حليلة وعم محمد - أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن نبرون أضرم النار في رومية - عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها في حاشيته المستهرة ، وفي يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعنى أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذى تمثل لخاطري وأنا أقرأ ذلك .. لارومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليله » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتمثال ، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطرى جمرة مضطربة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم - مسمراً هناك - وعيني عليها لا تتحول عنها ، وفي مسمعى من اللهب الخفاق اللعنان مثل اللدمة والتدويم ، وفي أنفي رائحة اللحم المشوى وعلى وجهي صمد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون في الصيف رطباً فكيف به في زمهرير الشتاء . . وكانت جليله قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التى تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم - أو السن كما يسمى تراب الفحم - في الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها منفاخ تعجل به لإيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد ، وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنيت به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسي الذى يتدلى منه الشريط في الغاز ولم تر أن



تترع الزجاجاة وتطفئ الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعتة إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حانية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفساً بالبترول .

وليس هذا خيالاً أتخيله فقد رأيت كلة بعيني ، وكنت قد غافلت أُمي وحليمة ، وانحدرت وراء جليلة ، وفي مأمولى أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلاً ، فقد كنت مشغولاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا تضن على بما تعلم - مما سمعت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلاً إليها ، فرأيتها تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألمت أن أقف حيث كنت - على العتبة - فلم يفتني شيء من الفاجعة .

وألقيتها تهوى إلى الأرض ، والنار حولها ، فأققت وأرتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصبح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك جليلة فإنها تحترق . وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جليلة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسلن النار إلى الحصير والسريـر وسائر ما في الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجىء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعذل شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لفظهم كثيراً وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخى يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » - « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ، ويتوعده بعقبة ، ويقول

ليته كان هو الذى احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليلة - عفى الله عنها « آه والنبي » . وترسل الصوت مجلجلا فى سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التى تعانىها لا تتوانى عن ملء العثوث وحملها إلى أخى .

ورآنى أخى كالكلب الذى لا يترك قومه ولا ينفك يجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب مخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرنى وطرمنى وأمرنى أن أصعد .

ولكنى لم أطع - نعم نأيت عن البدروم ، ولكنى بقيت فى فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من فى البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت . . وكيف أكون وحدى فى مأمن من المخاوف التى كظوا لى رأسي بصورها فيما كانوا يقصون على كلما أرادوا تنويمى . . كأنما كان خير ماينم الطفل هو هذه المفزعات .

وجاء أبى : فقد دعى من البيت الصغير ورآنى فى الساحة وحدى ، فأقبل على يسألنى بصوته الهادئ المتزن النبرات « أنت هنا » فبكيت . . كأنما فتح لى هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فربت على كتفى ، ومضى عنى إلى البدروم ، فألقى أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لا بد أن تأتى الشرطة ، وأن يجرى التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب بى أبى إلى المكتب ولحق أخى بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطى أخوف ما نخاف نحن الصغار ، بعد العفارىت والأمساخ ، وغير هذه ، وتلك من المرعبات . وكان الذى نعرفه هو أن العسكر عدو للدود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم فى المحابس ، وأن « الكركون » - كما كنا نسمى مركز الشرطة - ليس

أكثر ولا أقل من سجن فظيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ،  
فشرع أبي يذهب عنى الروع ويطمئنى ، ويروضنى على السكون إلى لقاء  
هؤلاء الشرطة وغيرهم ، ويفهمنى أنه ليس على أكثر من أن أرى لهم  
ما رأيت ، ويؤكد لى أنى سأكون موضع عطفهم ، وأنى سألقى منهم كل  
خير ، وأنه لن يصيبنى منهم سوء ، فتسيت وذهلت عن النار التى اشتوت  
بها جليلة ، وعن فجيعتى فيها ، ولم أعد أفكر إلا فى هؤلاء الشرطة المخوفين  
الذين ساقف أمامهم وأسأل وأجيب ..

مضت على هذه الحادثة أربعين عاما . ولكنى لأرى أثرها يمحى أو  
يهت ، وليس أبغض إلى ولا أقدر على أفزاعى وأطارة عقلى من النار ،  
وبمضى شتاء بعد شتاء ، وتحتاج إلى أضرام النار فى الموقد للتدفئة فيسألنى  
أهل البيت فأصبح بهم « يا خبر أسود ! لا لا لا .. حاذروا » وترتفع  
قبل عينى جليلة « فى سرادق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون على ويقولون أن البرد قارس ، فأروح اتفلسف وأقول لهم أنهم  
بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم فى المقاومة على الثياب والنار ،  
وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا فى التوقى ، ولم  
يجعلوا معولهم فى التماس الدفء على شىء أجنبى منهم ، وأقول لهم أيضا  
أنى أضعف منهم جميعاً ، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية ، ولكنى أحتمل  
ما لا يحتملون . فلماذا . . لا سر هناك كل ما فى الأمر أنى لا أكثر من  
الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعنى أن استغنى عنها ، ولا أستعين بالنار .  
وأذكر لهم أنى كنت فى صدر أيامى ألف رأسى عند النوم فى فوطة كبيرة  
وألبس ثياباً من الصوف حتى فى وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول  
عمرى مزكوما ، وكان السعال لا يترك لى راحة فى ليل أو نهار ، ثم ضاق  
صدرى ، وحزنت على نفسى وقلت ، إذا كان هذا حالى فى شبابى ، فإذا  
عسى أن أكون فى الكهولة والشيخوخة . . وكان هذا يسود الدنيا فى عينى  
ويغرنى بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، في شعري ونثري ، ويشت فتمردت وقلت أنه لن يصيبني شر مما أعان ، فخففت ، وصرت إذا نمت أخلع ثيابي جميعا ولا أبقى منها إلا الكفاية للستر . أى الجلاية ليس إلا ، وكان الألوان يسمح بذلك ، فقد كان الوقت صيفاً ، فلما جاءت مقدمة الشتاء ، وسعني أن استغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن أتخذها ، ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف ، ولكن بقية من الحذر القديم جعلتني أحرص على حملة ، ولكن على ذراعي ، عسى أن احتاج إليه في الليل . وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة ، أطل أدافعها وأقاومها ، وأرجئ الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه ، وأقول لنفسي « نصف ساعة آخر . لن يقتلني نصف ساعة من البرد ، ثم أرجئ الأمر مرة أخرى وهكذا ،<sup>٣٣</sup> حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له مادمت لا ألبسه ، فصرت أتركه في البيت ، وأن لي الآن لمعطفًا ، ولكنه قديم .. قديم حتى لقد نسيت من طول عمره متى فصلته ، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة ، بل ليس حتى للزينة ، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به إلى الرفاء ، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه فتركته ، وأمري إلى الله ، وأمره إلى الفيران .

أما الشرطة فقد زایلني الخوف الصياني منهم . فما يسع من يشب عن الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضرراً ولا نفعاً ، وأن الأمر فيهم إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب — أو لا ينبغي أن يكونوها — بل أداة حماية للناس . ولكني مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس وانقر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت خادمة كانت عندي أشياء — أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن جميعاً — فقلت غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس ، وهنئنا لها ما أخذت ولا عذبا الله به ، (فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة ، وهل ينفعها ما حملت إلا قليلا . وسينتهي بها الأمر إذا اعتادت ذلك ،

إلى الشقاء المحقق . فهي أحق بالعطف . وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب  
بما حملت ، لحاولت أن أعالجها وأن أفىء بها إلى الخير ، ولكن الأمر  
نخرج من يدي بفرارها ، فالله هو القادر على إنقاذها من ذلك المآل  
المخيف الذي أتوقعه لها .

ولى بين رجالى البوليس معارف وأخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكنى  
لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكنى أحس غضاظة  
حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غري مثلى  
- لاسلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر الذشاة الأولى  
على أنى لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور عال(أخرى خفية  
راجعة إلى آرائى ومزاجى .

- ٧ -

لا أعرف ما سر حبي للحى فى وجوه الناس ، غيرى ، ولكنى أعرف  
أتى مارأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخللة إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من  
أصابعى مشطا . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبت بها ، فان الناس فى  
زماننا يحلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستملاء به عن  
الحقيقة الحسنة أو الشائكة ولن تجد أحداً فى هذا الزمن يغضب إذا أخفى  
الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منقوشة  
ذهب بها إلى برلين لبشترك فى تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك.  
وقد احتفظ بحبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة  
وأخطر الفوضويين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب  
صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يقرع من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح  
وزعيق لا يكونان فى برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألقى  
الشيخ واقفاً وسط الدكان والنوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا  
بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهوت فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خير .  
أنظر .. » وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللقاء قد  
ذهبت بقدره قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغابة على خده  
الأيسر هائجة كما كانت ، فلم يسه إلا أن نضحك ، ثم عاجله حتى رده  
إلى الهدوء والسكينة وسأله ( ماذا قلت للحلاق .. )

قال الشيخ . ( أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألنى ماذا أبغى ، ولم أدر  
كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بيدي أن سوها - هه - أى بعض  
الشيء قليلا جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها ) .

وسأل الخلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال ( هاف ) أي النصف فهو لم يجز عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا : لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنثر لحية حقيقية ، أو تناح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك في حدثاتي بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبي لحية جدى . أفتل شعراتها أو أثنيها . وأدسها في أذنه فينتفض ويصيح بي ويتردني فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدى شعرت بأن خسارتى جسيمة ، وأنى فقدت مالا أرى عنه عوضا ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء آخر جدتى ليهزينا ، فأسكنناه وكنت أنا أشدهم إلحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قهصيراً فلاحيته تبدت أطول مما هي في الحقيقة فتسللت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوساً على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقا والسبحة في يديه ! وإذا به ينتفض قائما ويعلن إلينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدتى :

« ماهذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة يا حاجة أنى سمعت صوتا كصوت أبى يدعونى »

فزاد تعجبنا وقال أنى « أبوك يا خال .. أبوك يدعوك .. كيف تقول .. أين أنت من أببك وبينكما ركوب خمس ساعات في القطار ..

فقال « نعم يدعونى . لقد سمعت صوته واضحا جليا ينادى : يا عمر ولا بد لي من السفر فما أشك في أن به حاجة إلى .. »

وأصبر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فامتد دعنا الله وأرسلنا معه « عم

محمد، بالحقية إلى المحطة وفي مساء اليوم التالى جاءتنا منه برقية ينعى إلينا فيها أباه أى جد أبى .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجَد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجَد معلوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة— كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر ، إلا من أصحاب العائم ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هذا قويا ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب في حياته قطاراً ولا تراما ولا مركبة . وكان إذا زارنا في القاهرة يحج على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذى فى شق منه ثيابه ، وفى الشق الثانى هدية من التمر أو الجبن « الحلوم » أو غير هذا وذاك مما يرى أن يهديه إلينا . وكان أبى قد رزق قبل بولدين . ماتا . فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواى أن أموت أيضاً . وصارا يحزعان كلما أصابنى برد أو غيره . وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أنى ممن قيل فيهم أن « عمر الشقى بقى » واتفق أن جاء هذا الجَد للمبروك فاستكتبوه لى حجابا ، فخطط شيئاً فى ورقة ، أو كتب آيات من الكريم : لا أدري وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها : وقال علقوها له جنبه : فغلفوها فى قماش للتنجيد . أى لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء : ولم يكن حذاء فى الحقيقة : وإنما كان رجلا يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للحيط : وعلقوه لى فصار كالخجر فيما أحس حين أرقد على جنبى :

ولم يفارقنى هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتى إلى رحمة الله :



حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرجال وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فاذا عرفت ذلك نظرت إلى نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنفر من ذلك نفوراً شديداً . ولكني كنت أقول لنفسي أن جدتي كبيرة السن وأنها فجعت في ابنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تفجع في حفيدها الذي تتعزى به . فماذا على لو أرضيتها وسررتها وتركها تقضي ما بقي من عمرها في راحة واطمئنان . ثم أتى ما أحبت أحداً قط مقدار حبي لها ولأمي فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركها تفرح وتطمئن بالحجبات على جنبى . وكانت إذا رأني مقبلاً عليها لتحيتها كالعادة تبسم لى بقمها الأدرى ، وتمد يدها إلى جنبى لتتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافى » أنه مازال في مكانه . وما أبقيه إلا لأنه يسرني أن أراك راضية قريوة العين « فتمسح لى رأسى وتدعو لى بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أمى تقوم في أول الأمر مقامها في اللاحاح على أن أحفظ به فقلت لها يوماً « ياستى . أنك عاقلة ، فينبى لى لماذا ينبغى أن ألبس هذا الحجاب .

قالت : « أنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدى وأعظم ببركته . ولكن ما جدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تخجلين أن تقولى أنه يقينى السوء ويحمينى من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد . أليس ما قدر يكون » .

قالت : « آمنت بالله »

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب . ولكنى أحب أن احتفظ به للذكرى فاحفظيه لى عندك » .

فأخذته ، وبقي عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لى أنهم وجدوا حجاباً بين أشياءها . وسألونى ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فانه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الانسانية ففعلوا ، ولكنى لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أنى لم أقو على النظر اليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابنى فى حياتى وأعمقه أثراً فى نفسى ، ولقد أبيت إلا البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه ، لأن كل مافيه يذكرنى بها ولكنى كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكنى كنت أراها فى كل مكان ، وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وأن كان غيرى لايعرف ذلك ولا يفطن اليه ، وتلفت اعصابى فكانت هذه الخيالات تسرنى احياناً ، وحياناً أخرى تفزعنى فاضطرب وارتعد ، وثقلت على وطأة الهواجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء الا أن أفارق البيت ، وأنأى بنفعى عن مواطن الذكرى ومثارها على قدر الامكان ، وأقول على الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

بعد وفاة جدى أدخلنى أبى المدرسة القريبة — لقربها من حينا ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التى يجرى فيها الترام « الجديد » والتعرض لخطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة فى تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان — واحدة على شارع القرية — أى صانعى الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات : ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يجرى بحجر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر .

ويكفى للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقناً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل » ، لكن أدارجى « — أى أداري . وأنصفه فأقول أنه كان وجلاً طيباً ، وأنه لم يسنّ قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش — أى خادم — وقد أنعم عليه فى السنة التى دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهى لا تخول لصاحبها لقب إلبك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه : وقد جمعونا يومئذ صفوفاً فى ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الأنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم

« أفندي مزشوك يشا » وهى عبارة تركية معناها الحرقى « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلاً » .

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبى ، ولهذا كان يسمينى « ابن عبدالقادر » ولكنه كان أحنأ فكان ينطق الباء ميماً فيما يخيل إلينا . وكنت على صفري قد فطنت إلى مواطن الضعف فى نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسبغنى أقول له « ياسعادة البك » حتى يهش لى ويهز لى رأسه راضياً ويعفو عن ذنبى أو يجبنى إلى ما أطلب . وكنت دقيق الجسم صغيرة جداً - وما زلت كذلك إلى اليوم - ولكنى كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقي واضطرابي يثقلان على الملبين فيضربوننى أو يشكوننى إلى الناظر فتنجينى « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا فى السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما - وكان وجهه الضخم فيما يملو لى - فى حجم صدره . وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالخبر ، ثم نعود بعد حفظها فنحوها بالأسفنجة ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملايم اشترى بها « ماجورا » أخضرا كان يملؤه ماء لنغمس فيه الأسفنج ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع سنة من الصبيان تتصل بها أدراج بعلوهم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فتصايح ونضوضىء ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل فى مكانها من مقعد الدكة أو لوحها .

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كبيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادى الفراش ويناوله قرشاً فيشترى فولاً مدمساً وزيداً ورغيفاً ومخللاً . ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفمه محشو . فنضحك : فلا يبالي . فقد كان حلماً رحيماً لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يادح الناظر مقبلاً من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلغ اللقمة العظيمة ويتكلم في آن معا ، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد - وثباً من النافذة - إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات . » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب - الكرة أو سواها - وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر ليفي قليل الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا .

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً . ذلك أن أعضائه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على الحجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان لاعباً مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكننا كنا ندعوه « سالي مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البية » فـ كنا نراه إلا وهي بين شفتيه ولا أدرى ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكني أدرى أنه كان يتكاف رطانة كرطانة الانجليز . وكان له زميل في فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » - أي توفيق - وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يعبان إلا إذا شربا خمرأ . فأما « سيللي مان »

فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكنى لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أى يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً : ولا نكران أن هذا لا ينفى الولوع بالشراب ، ولكنى لم أر الرجل قط - فقد كان رجلاً لا صديقاً مثلنا خارجاً عن طوره ، لا فى ساحة اللعب ولا فى المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشتري لهم « المخلل » فى سلطانيات صغيرة لتشحن رغبتهم فى الطعام وكان عملها هذا يستدعى منها التساهل مع بقية اللامبالى ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفى يده القرش أو الملائيم ويصيح بعم أحمد « الطرشجى » هكلاً « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناولنه سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يندق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا فى مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

مرض أبي بعد شهور قليلة من دخولي مدرسة القرية الحكومية ،  
وصار كل من في البيت يلغظ بأن زوجته التركية سمته ، أو هي لم تسمه ،  
ولمّا دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بما لا  
يعرف أحد ، ليحبب أبي في هذه الزوجة ، ويبغض إليه أمي ، وكان  
أبي يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الخبرة  
ولكن أمي كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي عنيف فعنى أخني  
الأكبر بما أشج من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب  
بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوماً شيخاً يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر  
فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنباً ، وكتب  
على لحمه كلاماً وعلقه في الهواء ، ورمى في الموقد بخوراً فأطلقه وراح  
يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبي على ذلك فأغلق عليه  
الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحمل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبي وأراه  
ما رأى فشق الأمر على أبي فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدري بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور  
كان الطبيب يعود فيه كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيما يبدو لي  
صحيحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا  
ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود - السمك المسلوق  
والأرز والساكهة - وكل ماتغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن  
التزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخني كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع  
عليها ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم ، فلقيني الكاتب على الباب وسأني  
« أين عم محمد » فقلت لم أراه ، فأخبرني أنه ذهب ليحيى بي من المدرسة  
لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق :  
ودخلت البيت فألقيت في فئائه نقرأ من أقاربنا جلوسا على الكراسي  
فسلمت فقال أحدهم « أصعد . أصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن  
أراه قاعداً على « الكنبه » فإذا به راقده على مرتبة مفروشة له في وسط  
الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدبرت عيني في الغرفة ، فألقيت النساء  
من أهلي قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعن  
إلى عيونهن ويكفكن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلى بعينه  
فانحنيت عليه فقلني ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهممت بأن أدور وأخلع  
أثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأبي تتناولني وتميل على  
رأسى وهي تقول « أبرك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هنا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما ، فقد رأيت أبي ،  
كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظرتة ، ولا ابتسامته ، ولم  
يختلف شيء سوى أنه راقده على مرتبة ، بدلا من السرير حتى بعد أن  
ولولت النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفثيه  
وفي عينيه ، فثنت طرفي إلى الباكيات النائمات ، ثم عدت أنظر إلى أبي  
فراعتني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا يريق فيها ولا  
ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذي لمحتة لما انحنيت عليه ليقلني  
قد خبا وانطفأ فبنت ولكن منظراً جديداً شملني وصرفني عما وقع في  
نفسى من هذا الموت العجيب فقد تشددت جملتي وتحاملت على نفسها ،



وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من عينيه فأطبقت عليهما  
الجفون وثبتت جبينه ونهضت تشفق وتكاد تختنق :

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباقيات ، فالتحسرت إلى فناء البيت  
حيث الرجال وكانوا يكونون ولكن في صمت ، ففي الوسع احتملهم ،  
وضممتي أخي الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كفي والدموع تنهمر  
من عينيه ، وأنا كالصنم وأذكر أنني خجلت ، وحاولت أن أبكي ودعكت  
عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجلني وكنت لا أزال غير فاهم  
هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا - فوق وتحت - وترك  
النساء يطنن والرجال يبكين مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المآتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مآتما ككل  
المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخي بعد انقضاء الأيام الثلاثة  
صعد إلى حيث كانت أمي جالسة ، وأنبأها أن المآتم كلف خمسمائة جنيه  
فدهشت ولم تصدق وقالت أن هذه ثروته ففى أى شيء أنفقها بل بددها  
في يوم واحد ..

فناداني وكذت قريبا منهما أسبح وأرى ودفع إلى ورقة فيها أرقام  
وقال : هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة  
الأرقام ماذا تبلغ : . فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه !  
لا تنقص مليا واحدا .

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد  
كان المال الذي تركه كثيراً ولكن أخي بعد ذلك طلق زوجته وسرحهما  
وتزوج بجارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتاً مستقلاً  
فاحتجنا أن ننقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير

الذى كنا فيه فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخى وبخل علينا  
بالمال وصار يقر علينا ويغلق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ماترك  
أبى فى نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمى هى الوصية علينا فزور أخى  
توكيلا منها له وباع الأرض وبعثر ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لانعلم  
فلما علمت أمى لم تصنع شيئا وقالت أنها لانستفيد شيئا من أن تنزل به  
ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام واللبن والسكر والسمن فلو جاءنا  
ضيف لكانت فضيحة وكنت واقفا على عتبة الباب أنظر إلى صبيان  
الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكرههم شيء ولا يفكرون  
في بن أوسكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبى فى الأزهر  
مقبل على فقزعت وهمت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يرانى فيمضى فى  
سبيله ولكنه لمجئ فنادانى ، وقبلنى وقال « ستك الحاجة كيف حالك »  
قلت « بخير ولك الشكر » قال إصعد إليها وقبل لى يدها وقل لها إنى أريد  
أن أقابلها .

ولم يكن فى هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدي ،  
وكان ربما أقام فى بيتنا - مع أبى - الأسبوع والأسبوعين . وكانت جدتى  
تعده كابنها ، ولكنى أشفقت من زيارته ، ففى البيت شيء يقدم لضيف  
كريم مثله ، فإذا نقول له . وبأى شيء نعتذر .

ولم أر لى حيلة فأنبأت أمى وجلتى ، ثم انحدرت إليه وصعدت به  
فجلس يحدث جدتى وأنا واقف وظهرى إلى الحائط ، وعقلى شارد وإذا  
بى أسمعته يقول أنه كان قد خطف من أبى مبلغا آخر ، فثالثا فرابعا  
ليشترى بذلك أرضا لنا ، ولكن الأجل وافى أبى . فبقى المبلغ معه ،

ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن يتزل به قضاء الله فيضيع  
مالنا ، فهو يريد أن يرى ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرح ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا  
المبلغ وتيسر الانفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ،  
وإنصافاً له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة  
من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فما وسع أحدا منا في  
حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذي لن ننساه ولا نجهده :

انتقلنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنينا عن  
« عم محمد » وامراته « حليمة » .. أو استغنينا همّا عنا ، سيان ، فما كنا  
خادمين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود  
المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم ،  
وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا نتمتع به في  
حياة أبي ، وكل شيء في الدنيا عادة ، حتى النسك والعبادة ، كما يقول  
النواصي ، من قصيدة في ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتني النسك

وعودتني ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق  
والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة  
جنيهاً في العام أثقل ما تضطر إلى الإحتياط له وتدبيره وفي وسع الذاريء  
أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهاً في العام . فجاءنا يوماً قريب  
لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفينا من نفقات التعليم ،  
فاستحسننا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعيّن الوجوه التي ينبغي أن نحول  
إليها ما كان يأخذه التعليم . وكتب قريبى الطالب وأرانبه فقرأته على أمي  
فسرّتها ببارقة وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ،  
قالت حسبنا التعليم بالمجان مثله :

وغاب قريينا أياماً ثم جاءنا نبأ قال « ياسنى » .

قالت أمي « نعم . خير إن شاء الله » .

قال : « الغاية تبرر الوسطة »

قالت : « يعنى » .

قال : « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين »  
فصاحت به : « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً — تعنى ناظر المدرسة —  
يطلب رشوة .. »

فقالت أمى معترضة : « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى  
أن نوذى نفقات المدرسة ونستريح ونعفى ضمائرنا من هذا الإثم »

قال : « ولكن الإعفاء سيظل طول مدة التعليم »

قلت : « ولو »

فانصرف قريبنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا التخرج الذى لا موجب  
له فى رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت  
إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجأته ، فأنقذته أربعة جنيهات زعم  
أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل  
قريبنا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول أنه يتعقبه فى كل مرحلة  
من مراحلها ، ثم فأجنا يوماً بالبشرى ، ففرحت جدتى واغتمت أمى ،  
واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغى لى أن أفرح كجدتى أم أحزن كأمى .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو جنيهان  
وجاءنا قريبنا يقول أنه أخطأ ، وأن الوزارة إنما قبلت أن أتعلم « بنصف  
مصروفات » فقالت أمى بعد انصرافه : « ضيعنا أربعة جنيهات وارتركبنا اثماً  
لنقتصد ثلاثة جنيهات » وناولنى جنيتها — قيمة نصف القسط الأول —  
وقالت : اذهب به إلى المدرسة والأمر لله .

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبي الجنيه — ولكن الله ألهمني ألا أذهب إلى  
كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألني وهو ينظر إليه  
ولـى « ما هذا يا بني » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينيه » .

قلت « إن فلانا قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات  
فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بينه وبين أبي صداقة  
فرأيت الدمع يترقرق في عينيه وهو يقول .

— « أنا آسف يا بني ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، والله ما قصرت  
في السعي لك ولكن هذا ما كان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبي ، ورجعت به وبالحبر ، آخر النهار  
إلى أمي .

ودفعنا القسط كاملا :

وسألت أمي قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ  
الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردّها عند الميسرة ، وقد مات وهي  
في ذمته .

وقلت لـى أمي يوما « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من  
زيادة الضيق الذي كنا فيه ، أما التعليم فاني أحمد الله الذي مكّنني من أداء  
نفقاته في مراحلها كلها ، فما كان يسرني أن تشعر أنك دون أندادك ،  
وإنك رقيق الحول ، وهم في سعة ، وكنت أخشى أثر هذا في نفسك فالحمد  
لله الذي حرك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الابتدائية فقالت أمي « تذهب إلى المدرسة الحديوية  
وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخي وقريبي الذي أسلفت ذكره جاء  
ليقننا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قريبي « ان نفقات التعليم الثانوي كبيرة فمن أين تجيئين بها » .  
وعزز أخي رأيه . وألح الإثنان عليها إلحاحاً شديداً وهي تأتي وتقول  
أنها لا ترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف  
وكسب الرزق لا يزال بعيداً فاغلظ أخي لها في الكلام وعنف معها قريبي  
فطردهما وأمضت مشيتها وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمنا غير قصير  
لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ،  
وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بيننا وبينهما ،  
وقد فعلت ما تريد وقواما الله عليه فلا مسوخ لبقاء النبوة ولا موجب لها  
على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضمر لها بغضا ، ولكنها تخاف  
لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعينهما ، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى  
أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقي في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي وكادت  
تضيئني بل تقتلني . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي ، ولكن  
العلاج لم يكن يبدو له أثر فقضيت الصيف كله أوجله راقداً لا أكاد أهي  
شيئاً ، من شدة الحمى .

وفي إحدى الليالي ثقلت على وطأة المرض جداً ، حتى جزعث أمي  
على ما أخبرتنى بعد ذلك ، وكادت توقن أني هامة اليوم أو الغد ، لولا  
أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون  
مساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت  
وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها اللاهبة في الهواء إلى النوافذ ، وكنا

نضع قفل الماء على أحد هذه الشاييك لتبرد ، فحدث أن مدت أُمى يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أُمى واضطربت جداً ، وكبر ظنّها أن هذا نذير بموتى ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في فحمة الليل ترى أسلمت القلة أم انحطمت .

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فما يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من الهشم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة لإلارمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتى .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أولاً أدري كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذى كان ينبغى أن يكون محققاً .

ولقد حدثتني أُمى بعد ذلك بزمان طويل وهى تروى لى هذه القصة ، أنها بكّت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض خير عابثة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفى يدها القلة والدموع تهمو من عينيها دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت منى وأنا نائم ، ولمست وجهى بكنها ، مترفقه محاذرة ، مخافة أن نوقظنى ، فإذا أنا أتصيب هرقاً ، وإذا بشيائى كلها — كما قالت — عصرة .

وأصبحت وقد ذهب عنى وقلة الحمى وأخذت أتمائل . .



## ذكریات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخبرنا من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وما كنتي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماضٍ بحاضر . فثلاً يمكن بسهولة أن تصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت أن تلميذاً كان معنا في المدرسة ذل الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية ؛ وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الانجليزية . وارسم لي خطاً آخر تم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إداري .

والآن انتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية :

كان التعليم الثانوي انقلا بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة انجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يرفقون بنا ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركوننا

ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غيري وأقتصر على نفسي . فإني أعرف بها ، فأقول إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يخلفون ففهم اللفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملئ درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعه واحدة وعلى مكتبه الكرسي والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع في كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاؤه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له . تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لأدري لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعياً جداً .

واعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا أكبارهم حين التقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزه

أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا : ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لي بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ » ما هو الاسم العربي لهذا الدخان والتبغ تارة أخرى ؟ . « فقال » : انتظرنى ياسيدى حتى أنظر فى « الكناشة » وأخرج مما يلى صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مخبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حشحنوا حصاً قواده

أو أم خشف بلى شت وطباق

ومضى غنى . وفكرت أنا فى كلمة الطباق التى جاعنى بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزى أو الفرنسى « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معى أنى كنت أؤدى الامتحان الشفوى فى الشهادة الثانوية وكان هورئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألتى ماذا أحفظ . وكنت فى صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي ﷺ فعلمت بذهنى وألهمنى الله أن أقول لى أحفظ خطبة للنبي . ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قلى يا شاطر الله يفتح عليك » وسترنى الله فلم أخطئ ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفانى من النحو والصرف والإعراب .

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد أخواني بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار ، ولم تكن ندرس نحوأولا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعت ، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل « واعتدى » مثل « اعتديا » للماضي المثني « واعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببا وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سببا » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مخلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل . وأصررت على رأيي وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضوا في اللجنة - تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم ألفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فهض الشيخ وهو يقول « أي نعم » وذهب للصلاة ونسيتي فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين . ويكفى أن أقول أنه كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لانتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعونا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين ، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة ، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة ، وكانت طريقي أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى . والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الحديوية أن دخلت فرقة فالفيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوفة على نحو لاشك أنه متعمد وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتهم أنى أعد نفسى جاهلاً بها حماراً في علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جداً فضايف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها

هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسي أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغني نفسي فإنها تغني نفوسهم معي أيضا . فحالم ليس خيراً من حالي ، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصراً على ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة : والفوز في هذه الحالة خليك أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إل مثاها بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله في سرى أن يقويني على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلى فأسر واغبط وازداد نشاطاً في الدرس وأغضاء عن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فتد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها ترهق ، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصرت على عنادى المكتوم ، واغتنتم فرصة اصبع مرفوعة وسألت . صاحبها عما يريد ، فقال . أنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ، قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها : وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت ورائي ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي ، وقال لي واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصوداً به

غيرى ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكنى تجاهلت وسألهم عما  
يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التى كانت فى الفصل . قلت « رائحة . أى  
رائحة . . . » لأننى مزكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم « ومضيت  
عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا  
رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينفصوا على ، وأن ينجح . هم  
عبيهم الطبيعى فى مثل سنهم .

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت  
للأساتذة : إننى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء  
مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظرتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه  
المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن  
تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور  
التلميذ بأن المدرس والد له ينبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوى  
مداركه وينمى استعداداته ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل  
يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط  
النظام ، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ  
بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأنا إخوان كبار لهم  
وأصدقاء نافعون .

ولم أكتف بهذا بل ألغيت « الجرس » الذى يذق إيلدانا بابتداء الدرس  
أو انتهائه لأننى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور

والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لاداعي لهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .



## - ١٢ -

كان عزائى فى تلك الأيام قول القائلة :

« راح ييغى نجـوة      من هـلاك فهلك  
والمنـد - ايا رصـد      للفتى حيث سـلك  
كل شىء قاتل      حين تلقى أجـلك »

أى والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفى أهلى من المتاعب التى تجر إليها الثورات واضطراب جبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدى - لأمى - « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خالجتى الشك فى صحة رأيى ، وكادت ثقتى بقومى تذهب ، وكنت فى تلك الأيام أعانى أشد البرح ، فقد كان عملى فى قلب العاصمة ، ويبنى فى الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمى غاديا رائحا كل يوم ، ومعى ما يكفى لغدائى ، فلانى أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه فى فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمشات ، ومحشرون فى كل مكان يخطر على البال ، حتى فى مسجد محمد على بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذى يرتلون إلى فى المدرسة التى كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون على ماجرى ، ويذكرون لى أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بينى وبين تلاميذى علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتفوننى شيئاً ، ولا يحجمون

عن مصارحتى بما يلور في نفوسهم ، وما تضطرب به صلورهم ، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أنخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففي الوسع الاستغناء عن الأغذية واحتمال النوم على الأرض ، فبقي الطعام والثياب ، ويطيب لي أن أروى أن بعض التلاميذ كان يرتدى عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذي يعلم أن فيه اخواناً له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أي في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم – وقلما كانوا يصرفونه – فيخلع على زملائه أكثر ما كوم على بدنه ويطعمهم مما حل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ؛ فكنا تفعل كل ما ينخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلاً أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم .

وليس من همي أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، وإنما أريد أن أقول أنها زادت عنائي وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات ، وكل شيء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرخد ، وسكننا إلى الأحوال الجديدة الحافلة بالمنغصات والمتعبات ، وانقطع

التبرم والضجر ووطنا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن  
تجيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتي ، يموج إلى الأبد المظلم ، فكنت أسلكها  
كل يوم ، وأرى الأحداث المبهثرة في كل صباح ومساء ، وتحت ضوء  
القمر ، وفي وقدة الظهر ، وفي الظلمة الحالكه ، وفي البكرة المطلولة  
فتنعني هذا وبلد شعوري بالموت ، ونذا استهوى إلى الله فيزعي منه ، وجعله  
فيما أرى وأحس ، أمراً عادياً لا غرابة فيه ولا علة له ، حتى لقد صار  
يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشي ، فأقعد على صوي  
قبر من القبور الكثيرة في طريقي ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن ،  
وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر  
بمخرج أو استنكار .

وكان بدء التحول في حياتي أن زويتني ماتت ، وإني لأومن أن  
لكل أجل كتابا ، ولكني إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعني نفسي  
من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً  
بعد سنوات : فإلى حيث ألفت ، وما أعرفني شئت بميت سواه ،  
ولم يعتمد قتلها ، ولكننا دعوناها - وقد جاءها الخاض - فشمت  
رائحة الخمر من فمها ، وفحصها ثم قال لي إن الحالة طبيعية ، ولم يكن  
ثم موجب للدعوى ، وسيحصل الوضع في أوانه ، ولكني ثبتت فلا داعي  
للانتظار ( كذلك قال والله ) وكنت أعوانه ، فتظهر الآلات وشرع  
في العمل ، وجرا الجنين فاذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه  
إنحدوداً يسع الجنين ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتنفس الصناعي  
عني غير جدوى ، فألحت عليه أن يتركه ويسني بالأم ، فما ثم شك  
في أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم لم يخرج « الخلاص » فكان والله

يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك  
من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدرس يده وأخرج الخلاص  
مقطعاً إرباً ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخلى معه ،  
فقال لي إن الحالة خطيرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته :  
« متى تتوقع أن تكون الوفاة . . ؟ إني أسألك عن هذا لأني أؤثر أن  
أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعى ، فان واجباتي الآن لا تدع  
لي وقتاً للجزع ، فلم يجبني جواباً صريحاً ، وقال : سترى ما يكون  
صباح الغد .

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن الترف يلح عليها ، وأنها  
تموت شيئاً فشيئاً ، فبقيت إلى جانبها أقوى نفسها - وأنا يائس - وأشد  
من عزمها . وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان  
حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من  
نفسها ما لا أحس ، فأوصتني بولدنا خيراً ، وودعتني ، وجادت بالنفس  
الأخيرة ويدي على يدها .

وكاد عقلي يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ !  
وكيف أثبت تقصيره أو خطاه أو سكره ؟ ! وشق على الأمر حتى لقد  
تغير رأيي في الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر  
من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا  
لم يجلى ، ولم يمنع أن طبيباً ثملاً قتل امرأتى ، وأين العزاء في أنه غير عامد ،  
وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي، والاشتغال بتصحيح  
الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعتني  
فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذى عرفته فى ثلاثين سنة على أنى مع ذلك ظلت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدى العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون — وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوماً موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الحنة أربعين يوماً لتحنيطها — فلم أعد أطيق بيت جدى بعد أن خرجت زوجتى من دنياى فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتى قد جاءتني به فى جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومى لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق فى ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المهملون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصرى الذى كان يفاوض لجنة ملتر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ فى « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعى بك فسألنى من نبعث إلى المحكمة لحضور جلساتها . . قلت سأحضرها أنا . قال إنه عمل طويل شاق ، فدعة لغيرك ، قلت كلا ، وإن نى الحاجة إلى عمل مضمن يشغلنى عن نفسى ، ويصرفنى عن التفكير فى أمرى . وما أصبت به فى حياتى . فوافق ودعا لى بنحير ، ولم تدع لى المحكمة العسكرية وقتنا لسواها ، وكانت تعقد فى اليوم جلستين ، وظللت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت فى مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتدى على الفراش وأنام كالميت ، فنفعنى هذا أيضاً وإن كان أسقمنى .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالى ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتابات تودع بنك مصر أولاً فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتاب يحفظ في بيتي أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه وآخر خلفه ، وفيه القرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفي واطئاً ، فأيقظني ذات ليلة صوت جسم وقع في الفناء الخلفي فتوهمت في أول الأمر أن حجراً مزعزماً أسقطه قط أو نحوه ، ولكني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فهضت ، ومضيت إلى الباب الموصل ، وفتحت شباكاه ونظرت فإذا واحد من أهل الحى ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق ، فإني في البيت ما يستحق أن يطعم فيه أشد اللصوص قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئاً ، فحييته وإن كان قد أسخطني عاياه أن يجيء في هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل » وحملت ما بدا لي من تردده واضطرابه على حمل الخجل فألححت عليه فدخل ، ففضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة ، فاستغرب سلوكي معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لي بالحقيقة وسألني الصصح ، فضحكت ، وقلت له والله إنى لحدير بأن أخجل منك ، فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينه مبلغ فراغها فزاد خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لي أن من نقص المروءة أن أردّه خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجد غير الكتب ، فتناولت طائفة منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلى ، فقد ملأت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها انى أعطيته هذه الكتب ، حتى لا يزعمجه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقي فقال لي يوماً ان هذا البيت غير مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ، يؤدي هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جاعني بفقيه أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أردّه ، فكان يبيت كل ليلة عندي على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته . وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم . . . » فاستيقظ أنا أيضاً ! . . فلم أجد لي في هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس ، وما أقربه أيضاً — قرأت قصة هيبسيا لشالز كنجزلى ، وكان صديقي العقاد هو الذى دفع بها إلى وأوصانى ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهني قصة تاييس لأنا تول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هي التي أوحى إلى الأديب الفرنسي بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الانجليزية ، وإن كان أنا تول فرانس أبرع فنا وأسحر أسلوبا ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن في هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون في زورق أو سفينة — فما أدري الآن — فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهي إلى إمكان القول بأنه هو غير موجودا على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقني هذا الرجل يومئذ وأعجبني فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شيء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقته يدور في نفسي ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو في الرواية ، وكنت في صباى — أى نعم في صباى — أحببت فتاة كانت جارة لي ، وكانت في مثل سني ومن أجلها كففت عن اللعب في الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلي يزجروني عن لقاءها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبياني ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يخشون العاقبة ولا يطمثون إلى النهاية . وكنت لا أكم حيي لها ، بل أشعر به وأنا جذل مسرور وأحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وخادمنا فيدعو لي بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين



من أصدقاء أخى الأكبر فيضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كفى  
ويقولون « عال عال ما شاء الله ما شاء الله » .

وكنت أقول لأمى حين تنهرنى عن هذا الذى كان فى رأيا هبثاً « ماذا  
يضير أحداً أن أحبا ؟ »

فتقول « اختشى يا ولد عيب ! »

فأتعجب وأسألها « عيب ؟ أى عيب فى حبي لها ؟ إني لا أصنع شيئاً سوى  
أنى أحبا . »

فتقول « هذا هو العيب »

فأسألها « ألسن تحبينى ؟ »

فتبتسم وتقول « يا بنى كيف تسأل ؟ »

فأقول « لست أسأل ، فإنى أهرف أنك تحبينى ، وأنا أحبك وليس حبك  
لى عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ »

فتقول « هذا شىء آخر ، أنت إبنى ، وأنا أملك ، ولكن هذه . . .  
هذه ليست منا » .

فأسألها « إن أبى لم يكن منك . ولكن تحبينه ، ومازلت تلبسين السواد  
حداداً عليه منذ سنوات »

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم »

فأقول « صحيح أنى صغير ، وأنى لا أفهم ، ولكنى أحس يا أمى . .  
ألا يبنى أن أحس ؟ وصدقينى ولا تغضبى أو تستائى حين أقول أنه أشهى لى  
أن أكون جالسا إليها الآن وإن قلبى يرف صبوة إليها »

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع أيدها على كتفي وتقول « وبعد ؟  
ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ »

فأقول « لست أعرف ماذا تسنين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح  
بذلك .

فتسأل « ولكن النتيجة ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ »

فأقول « لا شيء . . أحبها ، وهذا هو الأول والآخر . . ثم لماذا  
يكون له آخر ؟ »

فتقول « انك طبل . . وهذا غير معقول »

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام . كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا  
إلى بيت آخر وبعدت الشقة جداً ولم يكن هذا ليمعني أن أقطع المدينة من  
أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابتت على حبها  
أعواماً طويلاً ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والآنس ،  
وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث  
قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحنت المدينة ، وهدمت الحى الذى  
كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت تماثيل جديدة ، وشقت طرقاً ، ووسعت  
مياذين ، وغرست أشجاراً ، ومليت نضباناً ، وأجرت تراما . وإذ بي في  
يوم من الأيام أزور هذا الحى وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف  
كان ، حتى اهتدى إلى الرقعة التى كان بيتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير  
العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تهت ولن تهت صورة الفتاة ، وإنى لأراها الآن ، كما كنت  
أراها في ذلك العصر الحالى ، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه  
« لب » تقشره لى ، وتعطينه ، لأنى لا أحسن قشره ، أو جالسة على

حشية تسرح شعرها الدجرجى ، وترجله وتصفره ، فأميل على رأسها ،  
وأدنى أنفى من شعرها الرخيف ، «أشم» . وإنى ليخيل إلى أنى أجد طيبه  
الآن أنفى ! وما أقول « يميل إلى » إلا انقاء لإنكار القارئ ، فإن شعورى  
بذلك أصداق ما يمكن أن يكون ثمر لإنسان بشيء . وما زلت أراها ،  
تجربى فى الحارة وراء دباجة لما شاردة ، وأنا أدعوها أن تريح وتقف  
هناك ، وتخطو مرفقة ، على حين أقف أنا فى ناحية أخرى لنعصر الدجاجة  
بيننا ، ونزحف ونفسيق على الدباجة المارقة ، وهى فتصيح وتضرب  
بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتحنى الفتاة عليها بنته لتمسكها ، فتأخذ  
عيني ثدييها الناهدين الراسخين وقد ثقل بالثوب وأحس هزتها تحتها ؛  
فيدور رأسى وأذهل عن الدجاجة ولا أعرد أدرى أفلتت أم وقعت ،  
فتصيح بى وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدنى ؟ » فأفبق  
وكأنى عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالدباجة حتى نمسكها .

وصورتها وهى على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة  
وتثبها بالمشابك ، وقد كشفت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق ،  
فبدت البشرة السمراء مضطربة من أثر الغسل ، وجهه الدعك وفعل  
الصابون .

وصورتها وهى واقفة ببناء البيت تودعنى ، وباب السكة موارب ،  
وقد ضمتها إلى صدرى وطوقها بازراعى ، وعكفت على فمها بالقبل  
الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهري إليه ، فررجل من أصدقاء  
أخى ، نعرفه ثرثرة تماما ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقى ، وأحسها  
ضجرت ، وأتوهمها قرت ، فأكتب ، فتصيح « لا لا . هذا الرجل »  
وتقص على الخبر وتعيد لى بشاشتى وترد إلى روحى الإشراف .

وصورتها وهى راقدة ورأسها على وركى ، ويدى على شعرها أمسحه

وأثخله بأصابعي ، وألمس خدها الأسيل ، وأداعب شفها الرقيقة بأصبعي ،  
فتغافلني وتعضة .

كلا ، لن تهت هذه الصور إيدا ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها  
السن ، أو يزداد عمرها عندي يوما ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .  
ولكنني نسيت اسمها ، فكأنني ما عرفته قط ولا سمعت به .

ترى ماذا كان ؟ وكيف كان في السمع ؟ وفي وسعي أن أسميها شيئا  
وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندي أحلى هكذا  
بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يزيد لها أن يكون لها اسم وماذا أصنع به  
وليس ينقص الصورة شيء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا .

بعد أن كتبت الفصل السابق شق على أنى نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التى أحببتها وأنا صبي ، ولا يزال لحبها - أو لذكراها - نوعة فى الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقصيت أياها أحاول أن أتذكر .  
سئتي وأنا أعلم أو أتكلم ، أرى نواطرى تنشئ إلى هذا الذى تنلت منى وغاب عني ، وكان يمسس إلى أحياناً أن السيف المسبل ينمحي قليلاً ، قليلاً ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجماً يوشك ومنه الخفاق أن يطالعني ، فأبتسم ، وأطمع ، وأتشرف ، ولكن ما كاد يرق يعود فيتناثف ويتراسب ، فارتد بالحيرة والأسف ، وأتغزى بقولي من يدري ؟ إن للذاكرة معابثاتها ، وقد يتفق لي يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون في مجلس شراب أو في السينما ، أو أكون ناهضاً من رقاد ، فيعصر الغائب ويظهر المحجوب أو المتوارى ، ويطفو الراسب ، ومن يدري أيضاً ؟ لعل حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعى أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذى كنت أعرفها به ؟ كلا ، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجده في جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هي قد نسي اسمي ، بل نسيني جملة ، فما كنا إلا طفلين نلعت بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لي وضنت به على العفاء كما غاليت وضنت ، وأكبر الظن أن شئون

الحياة وشجونها وأفراحها وأتراحها أذهاتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة ، وله من سحر . وإنه ليخطر لي أحياناً ، وأنا أرى بني أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بني منها ، ولو رأيت أبناءها — أترى صار لها بنون ؟ — لما وسعني أن أتصور أنهم بنو نادوني ، أو على الأقل أن خاطري المائل في نفسها لم يطبعهم بشيء سيئ ، ولكن أنى لي أن أعرف — بل أكون واثناً — أن خاطري يتمثل ، أو كان يتمثل ، لها ؟ ويشق على أن أتصور أنها تنسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبي ، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفي بيتها ، وفي حجرة مظلمة رطبة مزجورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخي الأكبر — رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة — قد أراد أن يبرني ويسرني فدعاني إلى مرافقته في يوم « شم النسيم » فذهب بي ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسي الثرثار الذي أشرت إليه في الفصل السابق — والذي رأيته أعانق فتاتي فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمي واغتمت له جداً — إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسي والكراسيات على هيئة المذاهي ، فجعل أخي وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينة ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، واديرب عليها الراح التي تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينة إلى بعينها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسست ولم أرد ، فقال أخي وكان من أظرف الناس إذا شرب — « خذ... إن هذا لا يضر » فهززت رأسي أن لا ، فقال علي وهمس في أذني « لا تخف لشرب وأنت آمن » فهززت رأسي مرة أخرى ، فعاد يهمس في أذني « اشرب بالله ، وسأقول لخالتي » يعني أمي ولم تكن خالته ولا أمه « أني اسقيتك سوبية » وهي شراب يصنع من الأرز فقبلت ، وأقبلت على الكوب الكبير اكرع منه كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدي بالشراب ، فدار رأسي قليلا ،

وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني وراح  
هذا الشركسي الثرثار يغمز أخى فيسألني هكذا عن فتاتي ، فأقول بحبي  
فيضحكون ويقرقون ، وتكون المرأة السمينه الجميلة أعلاهم ضحكا وأشدهم  
قرقة ههوت ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري ، لما نظمت بعد  
سنوات طويلات المدد - قصيدة ملاحمها .

حشا شرابهما في نال حسان      رياه ريمانا في مجلس الحان  
ريا الحبيب . ولا شيء كنفحته      وهنا يهيج أدراي وأشجاني  
حشا شرابهما حتي رأيتها      لا يسمان ، وإن كانا يتولان  
هما أثيران علاني على ظنا      وبالشراب على سري يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينه الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب  
الأول ألت ، على ، ففضي القلم يرسمها في التي بطرني منها ما نشره من  
الذكرى .

ولا أحتاج أن أقول أني سكرت ، وقد دخلت على أمي ، وشممت  
من فمي رائحة الليل ، فغضبت ، غضباً شديداً « دعت جدتي « لأبي » وقالت  
انظري ما صنع خبري بأخيه ؟ فنادت : جدتي أنتي ، فأقبل عابها يتسم لها ،  
فبهات به « يا قليل الحياء يا مزبلج .. نخذ » ونعلت القبقاب ، وأهوت به  
على أنتي وهو يضحك فيلاذنيها ويعتذر ويسألها الصفيح ، ويحاول أن  
يطمنها على ، وكنت أنا قد تسللت إلى غرفتي ، وارتميت على السرير ،  
ولم أكد أفعل حتى ألتيت ما في جرفي على البساط ، فخرجت .

ولم أعد أطيق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي ، فصعدت إلى السطح  
وانحدرت منه - على السلم المعهود - إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ،  
وأهبت بها أن تؤويني ، وتخفني عن العيون - حتى عيون أمها وأختها -  
فيحاربت كيف أصنع ، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت

وقلت هنا أختبئ ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرقت الفتاة كرسيًا قعدت عليه حتى نتدبر الأمر ، ثم جاءني بمصير ومغدة فارتيمت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هيات لي طعاماً — بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً — فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

في هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأني في سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة توتسني بوجودها ، وتجريني بأخبار البحث عني ، وقد ضحكنا سبداً لما روت لي أنهم أطلقوا منادياً يشبه في الشوارع « ياللي شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلاية بيضة ورأسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ »

وكان ضحكنا لأنني لست طفلاً حتى يظنوا أنني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أبي وبعدتي ، وبكاءهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بخبر مطمئن ، ولكن الوقت كان يمضي ولا أفعل ، وكان التردد في هذا والخيرة شر ما أعاني ، ولكنني كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي ، وصدق سريرتها في كتمان سري ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناى النظر فيه فكان حسبي أن أرى محبا الفتاة .

ولكن الحب ، بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء صدره بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا الحبس على ما كان فيه من الأتس ، ولم تنكر الفتاة منى ما كان يبدو من تمللي وضجري واشتغائي الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح ، فما كان من أمي إلا أن اثتررت وخفت إلى ، وضمتني إلى أحلى صدر وأرق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت . .



كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق  
الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عجوزاً شمطاء !  
فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدى ؟؟ لا !

ولاني لأذكر أنني كنت يوماً أتمشى مع صديقي الأستاذ العقاد ، فرأيت  
رجلاً قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الفلهر ، مغضن الوجه ، فقلت  
لصديقي « أنظر . . هذا هو المازني في السبعين من العمر ! تالله ما أقبح  
ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهلم والدماة ! لياسيدى ، خير من  
هذا المصير عمر قصير مع الهمة والقدرة .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة في حاضرها ، وأن أفسد على نفسي صورة  
صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهما ماتت ، فما ماتت عندي ، ولاني  
ليموت مني كل شيء ، ولكنها هي عندي ومعى حية لا تموت ولا تهرم  
مابقيت .

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انتباضاً عن الناس ، وفتوراً  
عن لقاءهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك  
أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحدث ، وكان يسرني أن أسمع  
صوتي - لا شادياً بل متحدثاً - وكانت لذة الحديث لاتعادلها عندي  
لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا  
ولوع به أو طلب له ، من برىء وكانت الوحدة تتلف أعصابي ،  
وتعصف باتراني ، وتكلفني شططا ، ثم ألفتني - من حيث أشعر ،  
ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسني المخرج من محيطها ،  
وأسلل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت ألتفت فلا أجد حولي أحداً ،  
وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبى من التهيّب والحجل  
مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسي مرة « ياهذا ، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق  
مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن  
ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب فلا يتفق  
أن تلقى وجهها تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير  
فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام  
أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه  
أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشى في هذا الشارع ، ولعل  
كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك  
فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك - ورفات مغلقة أو محلدة

ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم ، ومن يدري ، لعلهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما نحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لي أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأنني وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفوس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلذذها وانطأقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحياء كثيرة وهذه الصبغة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهي فيما بينه وبين نفسه به . وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جسيماً له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة « أو قولهم » أنت المازني أم اختراله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبقى في اذهان الناس كما يشاءون ان يتخيلوني ، وان اظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو - أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي - ؟؟؟ »

وقلت لنفسى أيضاً « إنك لم تعش إلى الآن » كما نحب وتوثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشبهها مادامت تخوض العباب مع الحائضين وتضرب في اللجة مع الضاربين ، لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ، وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال

فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذى هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك .

وقلت لنفسى أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تتحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك ، ذلك أنك تكون كالذى يشرب عصارة ولا يمص ، فيل من الحسارة تعفى نفسك أن تعب التقشير والمص ، ومنظر النفاية التى لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التى هى الخير كله ؟ ؟ »

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء ، ولكنى لن أحرم لذة الجهد ، حين استغنى بالكتب عن الناس . وقد صرت آكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدنى لا ما هو أعذب فى فمى أو ما أنا إليه أميل وأنى لأرد نفسى عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجيء فى أعقابها مالا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لى الآن مطلباً عند الناس ، فقد بعد ما بينى وبينهم جداً ، وإنى لأرانى مع الواحد منهم فأحس أنه فى كوكب آخر وعالم غير عالمى . ليس همى همهم ، ولا أنا منهم ولا هم منى فى قليل أو كثير ، ومنى ذهب الشعور بالمشاركة فإذا بيقى ؟؟ ولست أعنى أنى خير منهم أو أفضل ، ولكنى أعنى أنى أرانى مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا أفضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسى أيضاً « لقد ثار بى صديق مرة لأنى سألته ألا تشهى أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟؟ وحسب أنى أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ وأعترف أنى أسأت العبارة عما أريد ولكنى إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فإذا

يمنع منها؟؟ ولماذا نحيا أنفسنا بأسلاك شائكة لضرورة لها ولا منفعة منها؟ .  
وهبني تمرغت على التراب ، وتقلبت على الأرض ، كما يفعل الحمار ،  
فأين البأس هنا؟؟ إذا كان ثم بأس فهو علي لا على أحد غيري ، وثيابي  
هي التي ستسخ ، ووجهي هو الذي سيتعفر ، وإذا كانت نفسي تنازعني  
أن أفعل ذلك ، فإني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذي ترتاح  
أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبي غضب ، وإن كنت لم  
أقصر في الشرح والبيان ، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقبح الاختيار  
للمثل . ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكرى في مجلسه ، ولا ينفك  
يقول إني وقح قليل الأدب ، ولا شك أني كما يقول مادام الأدب هو  
ما يعرف . وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف - إذ أمكن أن  
يحمل نفسه على قاءة شيء لي - أني أخرج في بعض الأحيان ، إلى  
الصحراء وأتمرغ بالحمار على رمالها ، وأعوى كالكلب وأموء كالقط ،  
وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع ، ثم انهض وانفض عن ثيابي  
الغبار ، وأنسح وجهي ويدي ، وأعود إنسانا محتشما ذا سمت ووقار ،  
ولكن بعد أن أكون قد أَرْضِيت نفسي وأشعرتها أني حرولي في هذا  
الذي لا قيمة له عند الأكثرين ، وأن في وسعي أن أفعل ماأشاء ، وأكون  
على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي ،  
ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحده وأن تنعم  
بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما  
عسى أن تفعل وأنت وحده . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولا عين  
عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرعون  
أن يفعلوا ما تحدثهم به نفوسهم .

وقلت لنفسى أيضاً « لا أدري لم هذا الموت ؟ وإنى لأشتهى أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودى لو يمتد بي الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادى . وأحسب أن الموت هو مصدر مانعه فضائل فى الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبتة عن المتنبي فى « تصاد المشيم » فلا أعود إليه ، ولكنى أحسبه أيضاً علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بما فى الطباع . وإنا لفي زمن يعد فيه الخير فى مكان شراً فى مكان غيره ، والفضيلة هنا مرذولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبيل الفتى لأمه التى نجلتها ، قلة حياء ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعى من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعى من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلأثمان على قارعة الطريق وفى المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاعتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لحي لا يلبث أن يصبح « هالكا وابن هالك » ، وذا نسب فى الهالكين عريق ؟

وطال تفكيرى فى هذا الموت ، ونخامرنى خاطره ، فهو لا يفارقنى فى يقظة أو منام ، وإنى لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما ترامى لى من الصور والحوادث فى دقايدى ، وما غمضت عيني لبلة إلا

وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغايلاً أو مغالطاً « أتربى كل ما في الموت من هذا التقدير للشعور بالذات ؟ » ولا ينبغي هذا فأرتد أقول « وكيف يتبد حياة من لا يعرف أنه حي ولا يخس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جدرى استمرار حياة لا يخسها الحي ولا يفتن إليها ولا يدركها أنه موجود » أطبق الجنين على الجنين وأنا أحدث نفسي أن مالا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلا تنصر عن تدبره ، ولكن على واجبنا هو ادخار القوة والدفاع بها إلى آخر رفق . ولكن قاي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أنني إذا نمت ، قد تخاس منى الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعاً ولا أقوم بكفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تفلق العظم ، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج ، بل يزلزل ، فاحتال لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن التعود ، فيما سببربت ، يعفني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منظمه وإن كنت أسمعها عالية ، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستهلها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فتلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يحمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفها بهذا التفكير الدائم في الموت ، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء منحصر في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالي بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للطعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن

كل لقمة أتناولها يصبحها إنذار « حاذر من الكظة » فانهض عن المائدة  
وما شبت وتقول زوجتي وهي تقوم معي « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول  
متمشلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ؛ وإذا أكلنا لا نشبع » وأتقي أن  
أعديها بما ينقص عيشي .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولما نزلنا منزلا طله الندى  
أنيقا ، وبستانا من النور حاليا  
أجد لنا طيب المكان وحسنه  
مني ، فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكني أنظر إلى هذه التي هي مني النفس ، وروح الحياة وربحائها  
فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لي ملفوفاً عليها  
كفن وقد شاعت الصفرة في محياها المتوهج ، وأضت عينها التي تنفث  
السحر كقطع من زجاج ، وشاع فيها البلى علواً وسنلا ، وصارت غصارتها  
ونضارتها صديداً سائلا تسد من تنته الأنوف .

وأرد نفسي إلى عيني وأترفق بها وأنا أتصور ما لها ، فأراها شجرة  
يلوى نورها ، وتذهب زهرتها ويحف ورقها ويسقط عنها ، فتعري ، ثم  
يجيء الخطاب ويهوى على أصلها بالفأس . . . وكانت هنا شجرة ثم  
خابت . . . هذا كل شيء .

ويحضرنى بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبل غرد

كان يغنى على الفصون لنا ؟

فأديره في نفسي وأدهوره في شدي ، بلا صرت ، وأظل مع ذلك  
اتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازهم وأجد معهم وهم لا يدرون أني قبر  
مظلم ، وأنى أستر نفسي وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف ، أى نعم



لما أعرفني ضحككت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق ..  
ولكن ما لهم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود  
الدنيا في عيونهم ؟ ؟

ويلقاني الشبان ، ويسألونني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم  
أنى أحكم منهم وأعلم . وإنى لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم  
أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كربه ، وإن كان  
هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب  
والقبح الذين في نفسك ، ولا ندع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك  
وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصلهم به الحياة عاجلاً أو آجلاً بل  
آجلاً كما أرجو لهم وأحب وإنى لأتمنى لهم السلامة والنجاة، ودوام الاغترار  
بالحياة ، وإن قلبي ليصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحو عيونهم على  
حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة  
للحياة الزاهية واضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا  
شططاً ، فليس أقسى من ثني الأعصاب وأكراهها على بحالة غير حالتها  
ويخيل إلى وأنا أبذل لهذا الجهد من نفسي أنى أوقدت ناراً تحت أعصابي  
لتحمي ، وأنى أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويوسفني  
أنى لا أجذب ما أمرهم به بعد ذلك لتخمد الخدوة وتبرد ، ويذهب  
عنها الحر .

وأسال نفسي : أترك تمنى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية  
كرة أخرى ؟ ولا أكذب نفسي فأقول ( لا ) وأحس أنى في حيرة ،  
فلا أستطيع أن أقول ( نعم ) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟  
وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ، فهل  
يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ،  
فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها  
من جديد ، إلا ضرباً من الموت ، فكأنى سأموت ميتتين بدلاً من واحدة .

وأحياناً هذا الخاطر بالتهكم والسخرية . أركب بهما نفسي  
والناس والحياة وكل ما فيها ، وتستزقي الناطقة الفضية فترة ، فأذهل ،  
وأهناً ، لأن بالي خلا من التنغيص ، ولأن عاطفتي الننية جعلتني فيما أحس  
أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعني من اللبنة ، ووقفت بي على  
الشاطئ وأتاحت لي أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا  
ممعزل عنها فكأنني محلق فوقها ، غير خاضع لها . . ومن يدري ؟ لعلني  
أدخل السرور على نفس أخرى مظلمة كنفسي ، بما أعالج من فكاهة  
الحياة ؟ . ولبس قليلاً أن أستطيع ذلك وإنه ليسعدني أن أروهم أني أستطعت  
إسعاد غيري ولو دقائق معدودات وقد أكون واحداً ولكنه وهم جميل ، بل  
جليل ، وأنه الذي يغريني بتلمس الجوانب الفكاهية في الحياة ، ولا أنكر  
أن هذا يسري على نفسي أيضاً ، ولكن ما ينفعني ويشينني ساعة لا ينخلو  
من نفع لغيري . وما أظن بي إلا أني أصبت ، كذلك الذي شفاه دواء  
لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكرين المتوجعين لوجه  
الله وشكراً لله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الحسنيين ، فأنت الآن  
في المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ،  
ويصرفك ما في الصعود من مشقات وما يتماضاك من جهد ، وما تأخذه  
عينك من صور ومناظر - عن التفكير في الذروة وما بعدها ، فالآن  
أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبت باطل ليس  
يجدي أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتيسر لك أن تقف  
هنا قليلاً ، وتتلبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف ،  
لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهي  
أبدأ - أو في الأغلب الأعم - إلى تحت . . إلى المصير المحتوم . . وهو  
محتوم . . محتوم ، ما في هذا أدنى شك فما قولك في رياضة النفس  
عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت . . على الاطمئنان إليه . . على

السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينبغي حرصك على الحياة وضمك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليهيء نفسه لغده المأمول ، فهنا غدك الذي لا ريب فيه ، فمن أصالة الرأي أن تنهأ له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها . . .

وراقني هذا ، فصح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

---

## - ١٧ -

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل ترانى أسير فيها كما سرت ؟ »

ونخطر لي ، وأنا أدبر هذا السؤال في نفسي أن الأولى أن أسأل : هل يسرنى أو أنا أستهي ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعى أنني كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكنى أقول . إنى ترددت وصحيح أنها كرة - لو أتاحت - يكبر بها الأمل في طول البقاء في هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المعول في الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أنى تجاوزت الخمسين ، فإنى - كما قلت قديماً أيام كنت مغرى بالنظم -

أحس كأن الدهر عمرى ، وأننى أخو مغرق الأرضين بالفيضان

ويضحكنى الآن أنى قلت هذا ، فما أعرف أخى المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعنى نوحاً ، ولكن نوحاً لم يغرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذى لا دقة فيه ولا إحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أنا نوح أو حتى أنا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تعلق أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت في هذا البيت شبيهاً بالعامية أو الأطفال

حين يقيسون ما لاحد له إلى ماله حدود قريية . وللعامّة حذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسلوذة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذي يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومي في بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير الفؤاد يلتهم الدنيا وتحويه دفنا حيزوم

والذي يزعم نفسه قادراً على أن يطوى العالم كله في ضميره ، وأن فؤاده يتسع للعالم لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامي النفس

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديواني بعد أن أضيف إليه ما لم ينشر ، فقلت له إني لا أرضي الآن عما قلت من الشعر في صدر حياتي - وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح في رأيي صالحاً للنشر ، ولا صبر لي على هذا ، ولا وقت له عندي ، ومن الخطأ أن أنشر ما لا أستجيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضروري أن يكون رأي الناس مثله ، وأن ما يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعري ، ونشرى له معناه رضاي عنه وارتياحي إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لم خذوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبى ، ثم إن رأيي أنا في كلامي هو الذي يعنيني ، وما قلته إلا للعبارة عما في نفسي . .

فإذا كنت أراي لم أجد العبارة ولم أوفق في التصوير ، وأني تشابه الأمر على ، بلهلي ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبني الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسى وخوالجى ، فكيف أستطيع أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟ ؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت مافيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتي - كرة أخرى - من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإنى لأغوص في أعماق نفسى الآن ، فأجد أنى فى شبانى لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأنى لم أجعل بالى فى عهده إلى الحلاوة التى أذوقها الآن من عرض أيامه على خاطرى ، ونشر المطوى من زمانه . وأحسب أن الذى يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقق القلب له ويعتلفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقى منه وينتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب !! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعرضاً على نفس تحس ديب الفناء ، وتشعر بأنها مولىة عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة فى استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش فى الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيته والمعرفة فضلها ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ، ولكن الذى فى الماء لا يستطيع أن ينعم بمراى البحر ومناظر السابحين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ ، والماضى أوقع فى النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالسباح فى الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون فى اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضى - إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع المستفادة من رجوع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ،  
فأنا حين أكون على حال ما . لا أعجز عن انتزاع نقى منه . والوقوف  
بمعزل عنه بحيث يتسنى لى أن أراقب ما يجرى - كأنه يقع لسواى - وأن  
أدير فيه خاطرى فأكون فى الحاضر وكأنه مضى وذلقر بالمتعة المحسوسة والمتعة  
المتخيلة وضرب مثلاً فأقرب هبنى أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك  
أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة ، ولكنى أزيد على ذلك أنى أستطيع أن أسبق  
هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأنصور نفسى جالساً أتذكر حلاوة القبلة التى  
فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصورى هذا فى أثناء التقبيل . فهما قبلتان -  
واحدة أحسها بقمى ويرف لها قلبى وأخرى بجسدها لى خيالى كما ستكون  
بذكرها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا فى غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

---

سألتني « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك مللت الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

وليست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذي كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفئ التي تكاد تذهب بلي فإني أنسى كل شيء إلا أنني أكلت ، وما أذكر الشبع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه - وأعني النسيان ، لا الشبع - هو الذي حماني أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يمسى عاشقاً ويصبح سالياً ؟

أي والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو !  
ولكني أنسى أنني صبوت . وتطير من رأسي الأسماء والأحاديث ، كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لي أن خرجت يوماً بالسيارة وحدي إلى آخر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشي في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالي إلى الفرق بين وقع قلبي - قدم رجلي السليمة ، وقسدم رجلي المهيضة - وإلى مسافة الزمن التي يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى :



وكان الداعى إلى هذا أنه خطر لى أنى مخطيء فى اجتناب الرقص ،  
وأنه عسى أن تسعفى ساقى المهیضة ولا تبعأ بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة  
فلا یبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطین النفس علیه ،  
وأنا أحب الرقص ، ولكنى لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى  
أن تخذلى ساقى ، فأتلکأ وأبطىء ، أو درس قدم التى أراقصها وأدور  
بها ، وأحجل أن أجرب قبل أن اتبین واستوثق ، وإنى لهكذا وإذا بی  
أصدم بفتاة داخلة من بعض أبواب الحديقة ، فاتقيت الوقوع بإسناد كفى  
إلى كنفها ، واتقته هى براحتها على صدرى وأفقنا فشرعت اعتذر ،  
فقاطعتنى وقالت « أهو أنت ؟ »

فابتسمت وقلت « ليس عندى أدنى شك فى انى أنا ، فهل يكفىك  
هذا الجواب ؟ إنه على كل حال من نوع السؤال »

قالت « إنما أعنى أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ »  
فتأملتها ، وأطلت التحديق فى وجهها الصابح ، ولكن رأسى لم یخترج  
فيه شىء . فهزرت رأسى وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك  
تاریخ حیاتى من البداية ؟ »  
قالت « ألا تذكر ؟ »

قلت « هذه هى المسألة — كما یقول هملى ، فهل سمعت به ؟ »  
قالت « كيف تنسى ؟ كيف یمكن أن تنسى ؟ »

قلت « اسمعى » وجررتها من ذراعها إلى مقعد « هذا موضوع یحتاج  
إلى تقص طويل ، فقولى لى : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالا ،  
أو استعرت شیئاً ؟ »

فضحكت وقالت « لا مال لى أقرض منه ، وليس عندى ما یمسحق

أن یعار »

قلت « هذا حسن . فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس :  
سؤال آخر . . »

فقاطعتني وقالت « لاتسأل . . سأذكرك بكل شيء »

قلت « خيراً إن شاء الله ، هاتي ما عندك »

قالت « أتذكر السويس ؟ »

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل ، ومشى أجمل ، فهل تلاقينا  
هناك على ساحل البحر ، أو في الكازينو ، أو على الباخرة التي ركبنا  
إلى الحجاز أو . . . »

قالت - وهي تضحك - انتظر لا ، لم نتقابل في السويس ، بل في  
طريق السويس ، عند الكيلو الخمسين ، وكنا عائدتين إلى مصر : . . »

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ »

قالت « ألا تنتظر ؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر  
غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجده ، وكاد يدخل الليل ، وكنا نياس ،  
فقد كانت السيارات التي تمر بنا ، لا تقف ، وهي صغيرة لا تتسع لنا ،  
ولا تقوى على جونا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك  
فوقفت ، وسألتنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن نحملا جميعاً في  
سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا  
عليك أن نربط السيارتين فتجرنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي  
« ستخرب سيارتي ، وسينهكها هذا العبء ، ولكني حسبي عوضاً أن ست  
عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشرافي . . »

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبنا أسماءنا كلها في رقعة ، ولقيتك  
أنا وأخي بعد ذلك مرتين ، دعوتنا في أولهما إلى السفينة ، وفي المرة

الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين ، وقد أخبرتك في ذلك اليوم  
أنى مسافرة إلى الأسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنوانى فوعدت  
أن تزورنى ، وأن تكتب لى ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا  
ولا ذاك .

قلت « الحمد لله »

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت « اسمعى . إن رأسى هذا غربال واسع الخروق ، كما يعرف كل  
من يعرفنى ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين على الحكاية ، أن أكون  
قد قلت أو فعلت شيئاً .. الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر  
على هذا القدر . »

« قالت ، ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتني أيضاً .. »

فقاطعتها قائلاً « هل تريدن أن تضحكى على ذفى ؟ لأنك عرفت أنى  
سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. »  
قالت « ولماذا اخترع ؟ »

فتناولت ذراعها وسألها « سأوجه إليك سؤالاً قد يبدو لك محرجاً  
أو ثقيلاً ولكن عذرى هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .  
قالت « نعم .. قلت : « إن عيني زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله . »  
قلت « هذا صحيح » ففكرت وصاحت « هل تذكرت ؟ » قلت « كلا ،  
إنما أعنى أن عينيك هكذا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل  
حال — وهل .. هل .. ؟ »

قالت « نعم »

قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

قالت : « مبتظرة سؤاليك »

فتشهدت وسألتها « هل بستك؟؟ معذرة ! »  
قالت « أوه . . . هذا . . . نعم ثلاث مرات . . . مرة في الطريق  
وأنا معك في السيارة ومرة . . . »  
قلت « كفى . . . كفى . . . إني آسف . . . ولم يبق إلا أن أسأل هل  
كانت القيلة حلوة ! ؟ أظن أني سأجن .. »  
فقالت ، وهي تضحك « إنك مدهش . ولكن هل صحيح أنك تنسى  
إلى هذا الحد ؟ أم تراك تتكلف لتعابثني ؟

قلت « لا والله ، ما أذكر أني رأيتك في حياتي .. »  
وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش !

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل على أن أعشق ، لأنني  
أنسى كل حب ، بل كل عاطفة ، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين  
ساعة ، على الأكثر ، ثم تنطوي .

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل ، فأقول إنني لم أسأم الحياة  
ولم أزهدها فيها ، ولا فترت عنها ، بل أنا أطلب لها ، وأقوى رغبة فيها  
مما كنت في أي عهد مضى ، ولست آنس من نفسي عجزاً عن مسابرة  
الدنيا ، أو الناس ، فإن الأمر على التقيض ، وأحسب أن الرغبة  
في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها  
أو قصرها ، أو يفكر في أنها إلى زوال ، لأن ما يحسه من فيض الحيوية  
لا يجعل له بالاً إلى شيء من ذلك ، ولأنه يكون مشغولاً بانفاق هذه  
الحياة الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر ، فهمه أن يريح نفسه من  
ثقل الضغط ، وأن يفتح « البوابات » كلها لينحدر منها ويخرج بما يجاوز  
طاقته ، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم ينتفضي الشباب فيسلس  
التلفق وتخف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام ، فيتسنى للمرء أن يفكر

بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه في الماضي ، والحاضر ، وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشتهي أن يفوز فيما بقي له من العمر . باضعاف أضعف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل في شبابه ، لأنه كان مغترأ بالعباب الزاخر في شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفا عن التأمل والتدبر ، أما في الكهولة فإذا يغتر ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوما بعد ؟؟ ومن أجل هذا يخطيء من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتر الإقبال ، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل ، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو في شبابه يكون محمولا على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصدده ، وفي كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة يمحز بها إلى حيث ينبغي ، وقد صارت في عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطيء من يحسب الكهولة أضال استمتاعا بالحياة ، فإنها أدري بالمتعة ، وأحسن بها ، وافطن لها ، وأعرف بوجوها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأراني كلما عاجلت ذلك أذهل عنها ، أو استطرد ، أو أغرق خطر أنها في بحر من الذكريات والتأملات .

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة ،  
وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبثاً بالحياة أو أكثر فضيلة أو  
آثراً لها وللعفة والزهادة في سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض  
الإخوان ، فأنشأوا يجادلوني فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون  
الحقائق بل تهربون منهما ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لأنكم ترون هذا  
أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها  
أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شاباً كما كنتم ، ولعل الفرق بيني وبينكم  
أنى كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عيني في نفسي ، والغوص في لجتها  
على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث ، وأنى لا أحب أن أسمى  
الأشياء أحسن أسمائها بل أسمائها الحقيقية ، وأنى قد أغالط الناس ، وأخذهم  
ولكنى أصدق نفسي . وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن  
أتناول نفسي ، كلما تيسرت لي الخلوة بها ، وأحطها على كرسي أمامي ،  
وأتدبرها ، وأجبل فيها عيني ، وأفحصها وأجسها ، وأسبر أغوارها ،  
وامتحن نزعاتها وبواعثها ، واتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها ،  
وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ،  
وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التعجنى ،  
ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هي التى  
تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأى أو إرادة ، ومن غير  
أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأى والإرادة

إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، مابلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت حياتي ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحرق ، واستشف ، واستعجل ، واستوضح .

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول لا أدري ! كل ما أدريه أني كنت محدوداً على متن تيار قوي ، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ، وأشتهي وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعديني وتسحرنني ، فانظر إلى الدنيا بعين أصحابها لا بعيني ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي ، وأتصور حياتي وأقيسها على ما يروقي من صور الحياة في هذه الكتب ، وانتحل آمال أصحابها ومخاوفهم ، وهماهم وعزماهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسي ، ثم ازعمني ندهم وقربهم فأزهي وأتكبر ، وأغر ، لأنني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب لا كما هي في الواقع ، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحى هذه الكتب .

واضرب مثلاً - عشقت مراراً ، وقال في صديقي الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إليّ ، في ذلك الزمان .

أنت في مصر دائم التمهيد بين حب عفي ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إلي يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقي لا تنتهي ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فلنما أعنى الآن أنى اشتيت ، وأنى عانيت هذا  
الضرب من الجوع الذى يسميه الناس الحب ، ولكنى لم أكن أدرك  
هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، وإنما كان ما أقرأ من الشعر  
يغرينى بنشدان الحال ، ويطلقنى كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعنى إلى  
إحياء الشعور بالحب إلى نفسى ، فأتوهم أنى محب ، وأنى عاشق ،  
فأقضى الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول فى هذا  
المحبيب أو ذاك .

وألقي المحبوب ، فإذا كنت أصنع ؟؟ لا شىء أكون معه كما أكون  
مع أى واحد من خلق الله ، ولا يخطر لى حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد  
بنضارته ورونقه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ما أفعل  
مع إخوانى بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتى ، وأقعد بين كتبى ، فأروح  
أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللا  
ذات ألوان شتى ، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات  
أو نظرات لم أعبا بها فى حينها ، وأحملها المعانى التى أريدها ، فأسر بهدا ،  
وأتمل لذلك ، وأرى فى هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو  
التشجيع ، وفى تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلاام ولا أزال  
هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !  
لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، وإنما كنت أنظم شعراً ،  
وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذى أريد العبارة عنه ، والعاطفة التى  
أتحيل الصدور عنها ، ووحى لنفسى هذا كله ، وانتهى بأن أعتقد بأن هذا  
هو الذى شعرت به حقيقة لا توها ، وأنه هو الذى خامر نفسى لا الذى  
أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء .

ولا يخلو من فائدة فى بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرض  
الشعر هو الذى كان المقصود والذى اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة  
وإن ما كان من حب متوهم وإنما كان ثمرة هذه الرغبة فى قرض الشعر ،



أي أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسيًا فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أني صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعاً لشعري ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفه لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحاءها إلى النفس .

وفي وسع القارئ أن يقيس على هذا . فأننا لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كاللدى نومه غيره تنويمًا مغنطيسياً ، فراهيه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه في نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعي بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبتها تلك الفتنة ، فأننا أنظر في الكتب ، وفي الحياة ، بعيني ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأنني أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتي إلى رغبتى ، وأوازن جهد السعى وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالى بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستخفى هوى ، أو يغرنى حال ، أو يخرجني عن طورى أمر ، أو يفقدني اتزانى فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمع بي شهوة ، ولا تركض بي صبوة ، لأنني أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعلو بها مكانها . ولا أخلط بها الأوهام ، ولأنني أسير في الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتني لماذا أفعل الشيء ، فإنني أعرف الجواب الصحيح ، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول - ويمكن أن يصدق القارىء - إنى كنت فى شبانى  
أواقع الحياة واقعة الهواء ، أما الآن ، فلانى أواقعها واقعة المحترف ، وقد  
صارت الحياة عندى حرفة ، تعلمتها ، وحذفت منها الجانب الذى طلبته  
ورأيت أوفق لى ، والفرق بين الهاوى والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفى وأهواء نفسى ، طوع إرادتى ، وإراداتى لا تخضع  
إلا لتقديرى لما ينبغى - ويحق لى فى رأى - أن أفوز به من الحياة .  
والعمد فى سيرتى محقق ، إلى الحد الذى يتيسر للخلق الخاضع لسنن  
الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسى . لأنه يكسبني حظاً من  
الاستقلال ويجعل لى فيما أشعر نصيباً من الحرية ، فى الحياة ، ولا شك أنه  
يجعل شعورى بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أى قيمة  
لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

- ٢٠ -

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف  
لى يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر وكنت  
أقول - ولا يخفى على عبث ما أحاول -

وما نظمت من الأشعار إلا علالة  
لو أن سلكوا بالقريض يكون ا ،

\* \* \*

وكنتم أقول لمن يذكرون شعري :

« فلا تنفسوا شعرا ، على ، مفوفا  
له ، لو علمتم ، جانب متخوف  
كما نظمت هذه الرياح غماثما  
لها من غروب الشمس وشي مطرف  
يهددها مما يضم ، ممزق .  
ومما يوشىها ، مذيبة ومتلف  
لنا الله من قوم تذيب نفوسنا  
ويجنى سوانا ما نشور ونقطف  
ويصدر عنا الناس ربا قلوبهم  
ونحن عطاش ، بينهم تناهف  
نلوق شقاء العيش دون نعيمه  
على أننا بالعيش أدري وأعرف

\* \* \*

وأحب أن اتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولى :

« ولكنه ما أخطأنا لئلا نلذذة

إذا بلغ السؤل القريض المثقف

إذا هو سرى عن لئيف مفعج

وآنس قلباً موحشاً يتشوف

فما تحفل الدنيا إذا جل ظلمها.

ونحن من الأيام والعيش نصف »

ولم يكن زعمى أنى أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام

وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على  
كاهل صبرى فأصبح :

« لبست رداء العيش عشرين حجة

وثنتين ، ياشوقى إلى خلع ذا البرد !

عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجد بها

مراداً لآمال تعلل بالزهد . »

فيوم كان فيض الحياة زائفاً ، كنت أقول ياليتنى ما كنت ، ولم

يكن هذا طبيعياً ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجنى الحرمان ، وقطاف

الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشد ما آتمنى أن يثقل الزمان

رجله ، ليطول التلبث ، تقضى النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف

الركب مسيره إلى « فجر لا شيء » كما يقول الخيام فى إحدى رباعياته ؟

وقد صار ما كان يشق على أن أراه ، باعثاً على التسلية ومجلبة للسرور ،

ولم يصدق ظنى حين توهمت فى أيام الشباب الكاذب ، أنى سأقضى حياتى

تأثر النفس ، هائجاً ، أنه ليس لى عن ذاك معدى أو مهرب فقد قلت :

« سكنت ، فما أدرى الفتى كيف يغتدى

تجد به الأشجان طورا وتلعب »

كما قلت على لسان غيرى .

بل لم أسكن ، ولكنى نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد  
تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسى . ورضتها  
على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعورى  
القديم بالملت للحياة كان غير صادق ، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة  
عارضة أعانيها . وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة  
كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت . فكان يرجئى هذا ويخرجنى عن  
طورى . . ويعصف بأتزانى فأرانى أثور وأحاول فى مثل هذه الحالة الوقتية  
أن أنغص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلى سواء بسواء ، فأروح  
أقلد : « هينى » الشاعر الألمانى ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون  
الثورة ، فأقول مثلاً :

« سترخى على هذى الحياة الستائر  
وتطفأ أنوار ، ويقفر سامر  
فهل راق هذا الناس قصة عيشتى ؟  
وماذا يبالى من طوته المقابر ؟  
تركت لهم من قبل موتى وصية  
نظير التي وصت بها لى ، المقادر  
وهبت لأعدائى ، إذا كان لى عدى ،  
هموى وما منه ، أنا الدهر ، ثائر  
وأوصيت للمحجوب بالسهد والضنى  
وبالدمع لا يراقا ، ولا هو هامر ،  
وبالجدرى فى وجهه ليزينه  
وبالعرج المشنوء ، والله قادر

وبالضعف والأملاق والبأس والجوى  
وبالقسم حتى تتقيه النواظر ،  
وللشيب بالأوجاع في كل مفصل  
وبالثكل في الأبناء والجد عائر  
وكل مقام قد تركت لدى الصبا  
وما كنت منه في الحياة أحاذر  
وللناس ألوان الشقاء ، ولاني ،  
إذا مت ، لا آسى على من يخامر  
ولم يكن لي في ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فاتني أن أوصي لهذه  
الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة !  
وكان عقلي يثوب ، فأطوى هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر  
من شعري . . على أني كنت هادئاً ساكناً ، لما عثرت - وأنا أحاول .  
عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدي - على بيتين فيهما غير قليل من خبث  
المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلي - والمفروض أنهما يكتبان على  
قبر صاحبهما .

أيها الزائر قبرى  
اتل ما خط أمامك

ههنا ، فاعلم ، عظامي  
ليتها كانت عظامك !

وترجمتي هذين البيتين ، وأنا هادئ ، دليل على أن الثورة كامنة  
في النفس وإن كانت لا تبدو في العادة .

ثم صرت لا يعزني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب  
وإن المآل واحد ، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم  
أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتي أن أكون آخر من في  
الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لها أن  
هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين ( ولا أدري لماذا  
لم أجعلهم أربعة أو عشرين ! ) يصنعون كفنًا للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم ،  
ولست أراه غير أني عالم  
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة  
أليس سوي ما أنت بالعين شائم ؟  
هنالك ، لو تلدي ، تسدي أكفهم  
وتلحم ثوبا عهده متقادم  
وفي مسمعي منهم — وإن كنت لا أرى  
وجوههم — أصواتهم والزمازم  
يحكون ثوبا ناصعا فيه تنطوي  
— متى عريت — هذى الدنا والعوالم  
من البرد الخزي بيض خيوطه  
ومن بلورات القر فيه نمانم  
ومن نفس الريح المديد خطوطه  
ومن قطع السحب الثقال مراقم

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها

فاشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائى هذه المرحلة أيضا ، فليست ألتمس عزاء ، أو أنشد  
ما أغالط به نفسى فى الحقائق . وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس  
أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئا من هذا ، ولأنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان  
إلى هذا سبيل ، على أنى لا أعنى نفسى بأمرهم ، وحسبى أمر نفسى ،  
وهى فى هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده  
اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه مذاق  
فى الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

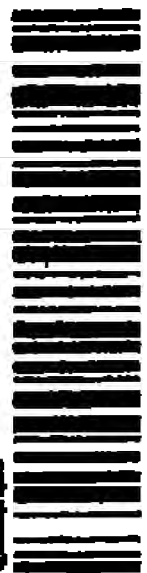


# الشعب

٩٢ شارع تمير الميناء بالخليج  
تلفون ٣١٨٩٠

رقم الايداع ١٥٥٣/١٩٧١

Bibliotheca Alexandrina



0395438

إحصائيون  
والمطابع  
المسجلة

تصدر  
عن  
دار الشعب  
مؤسسة صحفية عربية

مطبوعات  
دار الشعب

الطبعة: ١٩٦١ شارع قصر العيني القاهرة ٣٦٨٠ • مكتبة دار الشعب - ت ١٩١

الترخيص: مكتبة دار الشعب

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م